مصطفى محمود

سقوط اليسار

١١١٥



دار المعارف

مصطفى محمود

سقوط اليسار



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

لم يسقط اليسار وحده فقد سقط اليمين منذ حريق القاهرة فى الخمسينيات، ومازال على حاله من السقوط، ولم نسمع من المتحدثين باسمه فى مصر كلامًا جديدًا عن حلول لمشاكلنا، فما زالوا يتحدثون بنفس الأكليشيهات القديمة التى وقفوا عندها منذ الأربعينات.. وكأننا مازلنا واقفين عند نفس الظروف لم نبرحها..

ويبقى التوجه الإسلامى..

ويمتاز هذا التوجه بما له من رصيد عاطفى عند الناس، وبما له من شحنة يمكن أن تحفز المؤمن إلى تحرى الأمانة، وطلب العلم، وإخلاص العمل، والتحلى بمكارم الأخلاق، وهى أشياء افتقدتها مصر، وافتقدها جيل وقع فريسة حضارة مادية وفلسفات انحلالية تغزوه من يمين وشمال..

كما يمتاز التوجه الإسلامى بأنه وسط بين يمين ويسار، فهو يجمع بين حرية المال فى الرأسمالية وبين الضمانات التى تقدمها الاشتراكية للعامل والفلاح.. كما يجمع بين الملكية الخاصة وملكية الدولة.. وهو يأخذ من الغنى دون إسراف، ويعطى العامل دون إتلاف..

ولا أعنى بالتوجه الإسلامى حكمًا إسلاميًّا يأتى بالانقلاب وقوة السلاح، ويأتى معه بالحزب الواحد وبحكم الفرد.. فمثل هذا الحكم هو سقوط أسوأ من سقوط اليسار وسقوط اليمين، وهو إصلاح للمنكر الموجود بمنكر أشد منه.

وإنما أعنى به غلبة الرأى الإسلامى داخل الشكل الديمقراطى الحالى، وداخل التعدد الحزبى الموجود، وداخل مجلسى الشعب والشورى، ومجالس النقابات والصحف والإعلام.

غلبة للرأى الإسلامى.
وتناميا للضمير الوطنى.
وصحوة من الداخل.

صحوة تصحح المسار، وتضبط القرار، وتسارع بالإيقاع الإصلاحى..

التوجه المطلوب توجه إسلامى اختيارى.. ينبع بقناعة داخلية من داخل المقاعد المؤثرة بدون عنف وبدون أى شكل من أشكال القهر.. فلا أريد أن أخلع الوزير وأضع مكانه فقيهًا.. وإنما نفس الوزير المدنى المتخصص، ونفس السياسى المدنى المتمرس.. ونفس الحاكم، ونفس الهياكل الحزبية والديمقراطية.. هى التى أرجو أن تصحو من الداخل، وأن يتنامى فيها الضمير الوطنى، ويغلب فيها الرأى الإسلامى، والانتماء المصرى.

وأى أسلوب آخر لن يجدى، وأى عنف وأى تطرف لن يخلف إلا كارثة تُضاف إلى الكوارث التى مضت، فمصر لم تعد فى حاجة إلى انقلاب، وإنما هى فى حاجة إلى قيم وأخلاق، وصحوة ضمير، للوصول إلى ثورة إدارية وانضباط إدارى.. وهذا كل ما ينقصنا.

أما إحياء الناصرية كحل فذلك بلاء جربناه وعناء عسند على مدى عشرين عامًا، وانتهى بنا إلى خراب اقتصادى. وهزيمة منكرة، واحتلال إسرائيلى، وحقد طبقى، وفساد أخلاقى.

وخرج من عباءة الناصرية سلالة نعرفها.. عبدالكريم قاسم فى العراق، والأسد فى سوريا، والقذافى فى ليبيا، والنميرى فى السودان، ليرجع كل منهم ببلده مائة سنة إلى الوراء وليسوموا شعوبهم سوء العذاب..

ذلك تاريخ ثابت..

ولا تستطيع الكلمات الطنانة الرنانة أن تمحو تاريخًا ولا أن تغير واقعًا.

د . مصطفى محمود

كلمة التاريخ

سقط اليسار فى الانتخابات بجدارة.

والخبر ليس جديدًا.. فاليسار يسقط فى الانتخابات فى أى مكان من العالم.. وهو يتراجع فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وأسبانيا.. وهو يفقد مقاعده فى كل برلمان.. ويفقد سمعته أيضًا.. ويفقد شرفه ورسالته..

والرفاق يتساءلون عن السبب..

كيف يحدث هذا الفشل وهم حملة لواء التقدمية، والعدالة الاجتماعية، والمساواة، وحرية المرأة، والعلمانية.. إلخ.

والسبب هو تقدميتهم ذاتها.. وعدالتهم، وعلمانيتهم، وحرياتهم..

فما هو مدلول التقدمية عندهم؟

ومتى تكون الأسرة تقدمية فى نظرهم؟

الأسرة تقدمية جدًّا حينما لا تجد فيها بيتًا، فالرجل فى الشارع، والمرأة فى المصنع، والأطفال متروكون فى دار حضانة،

والأب والأم مُلْقى بهما فى دار للمسنين (لأنه لا يوجد أحد فى البيت لرعاية أحد) فالزوج يشتغل سائق قطار، والزوجة تشتغل سائقة تاكسى (مساواة) فهى امرأة تقدمية وليست رجعية تربى أطفالا أو ترعى زوجًا.. فهم يرفضون أن يكون نصف المجتمع الحلو عاطلًا فى البيوت.. والنتيجة أن الجيل الجديد يتربى فى حضن الشغالات، والجيل القديم يموت من الإهمال فى الملاجئ.

والعدالة الاجتماعية عندهم بلغت غايتها، فالعمال والكادحون يقفون فى طوابير ليشتروا الكرنب بالبطاقة، وأعضاء الحزب الاشتراكى يأكلون الكافيار ويركبون عربات الزيم الفاخرة، وبرجنيف (كمثال) كان يمتلك جاراجًا به أكثر من عشرين عربة فاخرة من أغلى وأفخر الرولز رويس والمارسيدس والليموزين.. تلك عدالتهم من واقع دفتر أحوالهم نفسه.

وحضرة التقدمى يفتخر دائمًا بأنه علمانى، ومعنى علمانى أنه لا يؤمن إلا بهذا العالم وهذه الدنيا، ولا يعمل إلا من أجلها.. أما حكاية الآخرة والله والحساب والعقاب فهى سذاجات يتركها لأمثالنا من السذج، وإذا حُوصر بالأسئلة قال فى حرج: إن هذه مسائل غير مطروحة.. وغيبيات.. وهو يفضل أن يعيش يقظًا منتبهًا لا مخدورًا غارقًا فى الغيبيات.

وأئمة اليقظة وقادة الانتباه الذين اتخذهم مثالا وقدوة.. هم ستالين.. (رجل قال عنه رفاقه السوفييت: إنه سفاح، وإنه قتل

عشرين مليونًا فى السجون. وقال هو عن نفسه: إنه أعدم خمسة ملايين فلاح رفضوا الاشتراكية والكوميونات).

وحضرة التقدمى ناصرى، مثاله الأعلى فى بلادنا جمال عبد الناصر.

وجمال عبد الناصر قائد كبير نعرفه، ونعرف أعماله، فقد أخرج الإنجليز، وأمم القنال، وأعلن الوحدة، وحقق المجانية، وطبق الإصلاح الزراعى مع بعض التعديلات البسيطة. فقد أخرج الإنجليز وأدخل اليهود، وأمم القنال وردمها، وأعلن الوحدة العربية فى الجرائد، وحقق التمزق العربى فى الواقع. وكرس الانقسام إلى يمين ويسار، وإلى رجعية وتقدمية، وإمبريالية واشتراكية فأصبح اليمن الواحد المتحد دولتين متحاربتين، يمن شمالى ويمن جنوبى، والشرخ الذى حدث فى اليمن امتد إلى كل قطر وإلى كل دولة، عربية وإفريقية، بل إلى كل أسرة، فتحول الكل إلى أعداء يأكل بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا تحت مظلة من الحقد اسمها الصراع الطبقى.. صدَّق عبد الناصر كلام الماركسيين بأنها تدفع بالتاريخ إلى الأمام وهى تدفعه إلى حتفه.. ومازالت هذه النار ترعى فى هذا العالم النامى وتأكل أخضره ويابسه، فلا تثمر إلا أزمات وفتنًا، وانقلابات وديونًا، وهبوطًا فى الإنتاج، ونظمًا قمعية، وحكومات بوليسية.

وأعلن عبد الناصر مجانية التعليم لتثمر قراراته عكسها تمامًا

اللامجانية واللاتعليم، ودروسًا خصوصية أضعاف المصروفات القديمة.. وانحدار مستوى التعليم الجامعى ينزل بالجامعة إلى مستوى المدارس الثانوية وأقل.. وهى نتائج طبيعية لقرار فج لم يواكبه تهيئة لإمكانيات، أو رصد لميزانيات.. فكان هذا القرار فى بلد مفلس هو نوع من الفشر، لإرضاء غرائز الشارع، وتملق الغوغاء.

وجاء عبد الناصر بالإصلاح الزراعى ليضاعف الإنتاج، فإذا به يخسف بالإنتاج كمًّا ونوعًا، وإذا بنا نستورد القمح ونتسول الرغيف.

وأدى غياب الديموقراطية على مدى العشرين عامًا من حكم عبد الناصر إلى غلبة قيم النفاق، والانتهازية، والسلبية، والتواكل، واللامبالاة، وعدم الانتماء، وإلى تآكل الشخصية المصرية، وإصابتها بنوع من الإيدز السياسى الذى لا برء منه.

وأدت أبواق الاشتراكية التى راحت تنفخ فى نار الصراع الطبقي وتزيدها سعارًا إلى سقوط هيبة الكبار، وإلى ميلاد مجتمع الحقد الذى يأكل بعضه بعضًا بلا أمل فى نهاية.

وقالوا: إن الرجل برىء ولكن الذنب ذنب أعوانه وحكومته.

ونسألهم ببراءة أيضًا.. من اختار أعوانه؟ ومن عين حكومته؟.. من سواه؟!

وهل كان لسواه اختيار؟

وجاءت هزيمة ٦٧ واحتلال سيناء، وما أعقب ذلك من خراب اقتصادى، ليؤلف علامة استفهام هائلة.. هى: لماذا قتل من قتل؟ ولماذا مات المئات من التعذيب فى السجون؟ ولأى قضية ثم علامة استفهام أكبر..

لماذا صاحبنا التقدمى ناصرى؟

وماذا تعنى كلمة ناصرية؟

وإذا كانت تعنى السد العالى فإن نفق المترو وحده بأعماله الخرسانية، مضافاً إليه عشرات الكبارى، والمصانع والسنترالات، ومحطات توليد الكهرباء، والموانى الجديدة، والمدن السكنية، والوادى الجديد، وتوسيع القنال، وغزو الصحارى، والتنقيب عن البترول.. إلخ.. إلخ.. وهى أضعاف السد العالى من ناحية الحجم الإنشائى، ومن ناحية الأثر.. ومع ذلك فقد تمت جميعها بدون أن نرى حسنى مبارك يقتل أحداً، أو يسجن بريئاً أو يعذب مخالفاً له فى الرأى.

ولكن المسألة ليست مسألة السد العالى ولا التصنيع.. ولا شعارات العدالة الاجتماعية الجوفاء.. وإنما السر شىء آخر..

السر هو لذة الانفراد بالحكم، والاستعلاء، والتأله، والتسلط.

لذة التحكم فى رقاب الناس، وهذه اللذة هى التى يسيل لها

لعاب تلك السلالة، التى لا تجد لها إمامًا تسير خلفه إلا ستالين وأمثاله.

ألم يقل عبد الناصر للقذافى:

إنى أرى فيك شبابى؟

وقد علقها القذافى على باب طرابلس. وهو يعمل بها، ومازال بعمل بها. ومثله عبد الكريم قاسم وحافظ الأسد والنميرى.

إنها سلالة واحدة.

نفوس بها هوس للسلطة والتحكم.

إن إخواننا الشيوعيين والناصريين الذين سقطوا فى الانتخابات يدقون الطبول وينفخون الأبواق ليرددوا الكلام القديم المكرر، عن تزييف الانتخابات، وتزوير الأصوات.

ولكنا نقول لهم:

أفيقوا يا رفاق.. إن اليسار سقط فى العالم كله.. والشيوعيون يفقدون المقاعد فى جميع البرلمانات..

فى جميع الدول.. وليس فى مصر وحدها..

وفى الكرملين الأم.. يتراجع جورباتشوف، ويخلع عن نفسه شعاراتكم..

واليسار الذى تبقى نشطًا عاملاً فى الساحة هو أمثال الألوية

الحمراء، وغيرها.. مجرد خلايا تخريب، وإرهاب، وخطف وسيارات ملغومة.

أفيقوا..

إن العالم تغير.. فالحقوا بالقطار قبل أن يكنس التاريخ ما تبقى من السيرة العطرة، ويذهب بها إلى البالوعة.

كيف يحكم الكبار هذا العالم؟

قوة الاقتصاد هى السلاح الأول الذى يحكم به الكبار هذا العالم..

وقوة الاقتصاد ليس معناها مجرد الغنى أو مجرد الثروة، فقد تؤتى الثروات لحكومات متخلفة، فينفقها الحاكم بددًا وهباءً فى أحلام فارغة.. كما أنفق القذافى ثروة ليبيا فى معارك إيرلندا، ونيكاراجوا، ونيوكاليدونيا، وتشاد، والحبشة، وأنجولا، والفيلبين، ليقال عنه إنه الثائر العالمى الذى يغير التاريخ، وقد فعل عبد الناصر مثلما فعل تلميذه بتبديد ثروة مصر فى حروب الكونغو واليمن وغيرها.

وإنما الاقتصاد يصبح قوة حاكمة حينما تقترن الثروة بالإنتاج، وبالتخطيط والتدبير، وبحسن السياسة وبعد النظر، وبالدهاء وبالذكاء فى التعامل مع الظروف والمتغيرات، وكمثال لذلك ما فعله الكبار لمواجهة حرب البترول التى أعلنها عليهم العرب، والتى ارتفعت بها الأسعار إلى ما فوق الأربعين دولارًا للبرميل.. لم يرد الكبار بالشعارات أو الهتافات، ولم يردوا بالقنابل والبارود،

وإنما بالقانون.. والقانون هنا هو قانون العرض والطلب، وذلك بزيادة المخزون من البترول، وبإنتاج المزيد عن طريق حقول بترول بحر الشمال، وفى سنوات معدودة تم إغراق السوق بالنفط الخام، وتدهورت الأسعار من أربعين إلى خمس دولارات للبرميل.. وبلغت خسائر دول كبرى منتجة للبترول مثل روسيا سبعة آلاف مليون دولار سنويًّا. وفى مجموع الدول العربية أضعاف هذا المبلغ، وتوقفت مشاريع النمو فى هذه البلاد، وتحول بعضها إلى تسول القروض بالربا من أمريكا وأوروبا، وإلى طلب المعونات العاجلة من البنك الدولى، وتحول السادة الأغنياء إلى شحاذين.. حدث كل ذلك بضربة معلم، وبعمل اقتصادى مجرد.

ومثال ذلك حرب القمح التى أعلنتها أمريكا على روسيا.. وحرب الإنتاج التى أعلنتها اليابان على أوربا وأمريكا، وكانت نتيجتها أن ارتفع الين اليابانى ليضرب الدولار فى السوق.

وقوة الاقتصاد تعنى الصناعة المتطورة، وتعنى الزراعة المتطورة، وتعنى التعليم المتطور، والجامعات المجهزة بالمعامل والمختبرات، وتعنى الميزانيات المرصودة للبحوث والاختراعات.

وقوة الاقتصاد تعنى التسليح الجيد (المكوك الأمريكى الجديد سوف تبلغ تكاليف صنعه ثلاثة آلاف مليون دولار.. أى ميزانية دولة).

ولكنها لا تعنى تبديد هذا التسليح فى حروب فارغة ومغامرات

صبيانية، وهى أيضًا لا تعنى تبديد المال فى الترف والمظاهر، كما أنفق الإمبراطور بوكاسا إمبراطور أفريقيا الوسطى ثروة بلده ليصنع لنفسه عرشًا من الذهب مطعمًا بالجواهر.

والقوة الاقتصادية لا تأتى للدول عن ميراث، ولا تنزل عليها من السماء، ولكنها تأتى بالعمل والكدح والعرق، والإنتاج المتفوق المتميز الذى يغرى كل الأطراف بالثراء.. والعمل بدوره ثمرة للأخلاقيات الجادة، والانتماء، والمثابرة، والإصرار.

وقد أخطأ كارل ماركس حينما تصور أن التأميم وملكية الدولة لوسائل الإنتاج هى السبيل إلى زيادة الإنتاج.. وما حدث فى جميع البلدان الاشتراكية كان العكس، فقد هبط الإنتاج فى الكم والكيف، وسادت اللامبالاة، والسلبية، والبيروقراطية، والكسل، والاتكال على الدولة فى كل شىء، بسبب غياب حافز الربح، وتراجع العامل الفردى فى الابتكار والتجويد.

وثبت بالتجربة التاريخية أن الاقتصاد الحر والمناخ الديمقراطى هما السبيلان الوحيدان إلى زيادة الإنتاج وتحسينه كمًا وكيفًا، وقد أدى ذلك إلى تراجع الدول الشيوعية عن منهجها الاشتراكى، ولجوئها إلى الانفتاح، وإلى تشجيع القطاع الخاص، وإلى نقدها للفكر الماركسى، ونعته بأنه فكر رجعى معوق.

وقد رأينا أمام أعيننا حرب الخليج تتحول بعد ست سنوات من القتال إلى معادلة اقتصادية صريحة، هى: أى اقتصاد من

الاثنين سوف يصمد للاستنزاف.. اقتصاد العراق أم اقتصاد إيران؟!

ومن وراء العراق وإيران.. أمريكا وروسيا تمدان الاثنين بالسلاح، وبقدر وبحساب، حتى لا يتفوق طرف على طرف.. وحتى تظل الحرب نزيفًا لا حسم فيه.. وإنهاكًا محسوبًا لموارد العرب، وتدميرًا للعتاد الحربى الذى يشتريه العرب بثروتهم الوحيدة.. البترول.

إنها مرة أخرى لعبة اقتصادية مكشوفة لإفقار المنطقة، ثم ربطها بحبال التبعية للغرب وللشرق إلى الأبد.

وبرغم أنها لعبة مكشوفة وواضحة لكل ذى عينين فإنها ظلت مستمرة بالقصور الذاتى.. وبحكم التخلف الشامل للمنطقة حكامًا ومحكومين.. ألا تساهم سوريا وليبيا فى كسر الجبهة العربية بمناصرة إيران على العراق؟! أهو تخلف فقط أم خيانة من هؤلاء الذين يزعمون أنهم جبهة الصمود والتصدى؟! وتصدٍّ لِمَنْ؟! إنهم يقولون إنهم جبهة التصدى للعدو الإسرائيلى.. ولكن لا أحد منهم قد ألقى حجرًا على إسرائيل، بل كلاهما مع إسرائيل فى نفس الخندق.. وكلاهما يعملان وفق المخطط الإسرائيلى.. ألا يعمل البعث السورى منذ أحد عشر عامًا على إثارة الفتن فى لبنان للإيقاع بين المسيحى والمسيحى، وبين المسلم والمسلم، وبين الفلسطينى والفلسطينى، حتى إذا

أغرقوا لبنان فى الدم دخلوا إليه بزعم إنقاذه ؟! وماذا يخدم هذا المخطط سوى إسرائيل ومصالح إسرائيل ؟! ألم يجتمعوا ثلاثتهم: سوريا، وليبيا، وإسرائيل، على هدف واحد هو تسليح إيران وإمدادها بأدوات الحرب.. والفضيحة الأخيرة مازالت تتداولها الصحف، وهى صفقة السلاح المهرب من أمريكا إلى إيران عن طريق وسطاء إسرائيليين.. صفقة بألف مليون دولار.. وهذا هو الصمود والتصدى.

إننا لم نسمع أن حافظ الأسد أطلق رصاصة واحدة على تل أبيب، ولكنا رأيناه يضرب مدينة حماة بالطائرات والمدافع، ويقتل الألوف من مواطنيه السوريين.. ومن قبل ذلك ومن بعد ذلك لم يكن لمخابرات البعث من عمل سوى سجن واعتقال وإعدام كل سورى يضعه سوء حظه فى طريقها.

والظاهر أن اللعبة بين الصغار تجرى بمنطق آخر.. ليس منطق القوة الاقتصادية، ولا بمنطق من الأكثر تقدمًا، ومن الأكثر مواردَ.. بل من الأكثر غدرًا ومن الأكثر لؤمًا ومن الأكثر مكرًا.

وهذا هو الطبيعى فى المعارك التى تجرى فى بدروم الخدم.. حيث يخدم الصغار مخططات السادة الكبار على طريقتهم هم كخدم.. يأتيهم المدد تسللا من فوق، من السادة.. تأتيهم طائرات لم يصنعوها، ومدافع لم يخترعوها.. ليقوموا بأدوار مرسومة، ويقبضوا مبالغ معلومة.. وكل شىء يجرى فى الخفاء.. وفى الظاهر

شعارات وهتافات وصمود وتصدٍّ وعنترية فارغة.

وهناك من الحكام العرب من يعرف ويسكت اتقاء لشر هذا أو شر ذاك، وينسى أن السفينة سوف تغرق بالكل.. بل قد نراه يدفع لهذا ويدفع لذاك ليشترى لنفسه أمانًا مؤقتًا، وما يشترى إلا هلاكًا محققًا.

والتمثيلية مستمرة برغم أنها أصبحت مُعادَة ومُبتذَلة.. وإذاعات جبهة الصمود والتصدى ما زالت تدوى مرددة نفس الكلام الفارغ.

ويبدو أنها لن تسكت حتى يُصاب أصحابها بالسكتة.

وقد تعب السياسيون من كثرة الفتاوى،

ولا حاجة إلى كثرة من الفتاوى.

فليس هناك إلا سبيل واحد للخروج هو القوة الاقتصادية لنتعامل بها مع عالم الأقوياء.. ولا قوة اقتصادية لنا إلا باجتماعنا.. فمواردنا البشرية، ومواردنا المالية مجتمعة كفيلة بأن تجعل لنا ثقلًا له وزنه وله خطره..

لقد استطاعت دول أوروبا أن تُكَوِّنَ لها سوقًا أوربية مشتركة، واستطاع لصوص المافيا أن تكون لهم دولة.. واليهود المشردون فى قارات العالم اجتمعت كلمتهم، وهم يتخاطبون بأكثر من لغة، وينتمون إلى أكثر من قومية.. ونحن أهل اللغة الواحدة، والدين

الواحد، والمصلحة الواحدة، مازلنا يقتل بعضنا بعضًا، ونتشاتم، ونتقاذف الاتهامات، ويحاول كل طرف أن يصفى الآخر جسديًّا، وأكثر صفحات جرائدنا مهاترات، وأكثر إذاعاتنا سباب.

وإذا كان نصف الطريق إلى إصلاح أنفسنا أن نعرف أخطاءنا فقد عرفناها، وقتلناها بحثًا ومعرفة..

ولكن بقى النصف الآخر الصعب: أن نتغلب على الإقليمية الضيقة، وعلى المصلحة العاجلة، وعلى كبرياء الرياسة عند أهل الرياسة، وهوى الحكم عند أهل الحكم، وعلى الشخصانية فى النظرة عند الأشخاص الذين بيدهم مقاليد الأمور.. ويبدو أنها أشياء بالمقياس الحضارى تحتاج إلى نضج، وإلى معاناة وابتلاء، وإلى وقت.

ولم يتوحد الشمال الأمريكى مع الجنوب إلا بعد حروب ودم وقتل.

ولم تتوحد أوربا بشكلها الحالى إلا بعد أن اكتوت بحربين عالميتين.

هذا غير ما كان بين إنجلترا وفرنسا من حروب المائة عام فى التاريخ البعيد.. وقراءة التاريخ لا تبعث على التفاؤل إلا إذا كان الله يدخر لنا رحمة كما فعل بأسلافنا.. أليس هو القائل لنبيه: ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ (٦٣ - الأنفال).

فلعله يؤلف بين قلوبنا برحمته بعد أن عجزت عن تأليفها حكمة الحكماء.. أو لعله يتركنا للمحن والكوارث لتؤلف بيننا بوشائج الدم والألم والعذاب.. وهو أمر يطول بطول الحقب التاريخية.

ولكن يقينًا لن تتم الوحدة بالمقالات، أو بالخطب، أو بالشعارات، أو التمنيات والأغانى الوطنية، وإنما هى مرهونة بالتحضر والترقى الأخلاقى، والقناعة العميقة بمقتضيات الضرورة.

وأرجو ألا تأتى لنا ونحن نعانى النزع الأخير.

الدخول من سلم الخدم

حينما لامست عيناى شوارع نيويورك لأول مرة كان أول شعور لى أشبه بالصدمة لهذه العملقة والضخامة فى ناطحات السحاب، وهذه الكتل المعمارية الهائلة من الحديد والخرسانة، وهذه الغابة الهائلة من الأسمنت والصلب.. وكان واضحا أن القيمة التى تسيطر على عقول هؤلاء الناس هى الضخامة والعملقة والقوة، كبديل عن الرفاهة واللطف والجمال والرقة.. ونفس الشىء فى الموسيقى النحاسية الصاخبة، وأصوات الديسكو التى تصك الآذان، والتى انتشرت فى كل مرقص وبار بديلا من الوتريات الناعمة المرهفة، والتانجوهات الحالمة التى تعودناها.. وفى الميناء البوارج وحاملات الطائرات وأوناش تُرفع ألوف الأطنان كالمردة.. وشركات كالحيتان تتعامل فى ألوف الملايين من الدولارات، وفى التلفزيون أخبار تدوى منبئة بوصول السفينة الفضائية إلى زحل ومشاهد مفصلة لهذا الكوكب البعيد الذى يدور على بعد مليون ميل..

كان من الواضح أنى أشاهد ملامح حضارة مادية كاملة بكل

مقوماتها.. حضارة تؤثر الضخامة على الجمال، وتفضل المكسب على القيمة، وتعلى العقل على الوجدان، وتعلى العلم على الحدس، وتعلى التجربة على الإيمان، وتعشق المباشرة الحسية لكل اللذاذات.. حضارة تلهث خلف القوة والمتعة واللحظة.

وقد أصابت هذه الروح بعدواها كل المدن الكبرى.. وما نراه فى لندن وباريس وبرلين وهامبورج ومدريد وجنوة والبندقية هى نفحات من هذه الروح المادية المكتسحة.. بل فى القاهرة.. بل موسكو وبكين وطوكيو.. بل العالم كله قد غلبت عليه هذه الحضارة المادية بطقوسها وسدنتها وآلهتها وشريعتها ومنطقها.. بل داخل كل نفس من نفوسنا الآن منطقة نفوذ ومجال انجذاب لهذا النمط من الحياة المادية الاستمتاعية اللاهثة.

والفيلم السينمائى، والمسرحية، والتمثيلية التليفزيونية، والأغنية، والصحيفة، والمجلة، أصبحت جميعها نشرات دورية تروج لهذا اللهاث المادى.

المال والجنس والآلة والقوة تحكم الآن فى صرامة على جميع مداخل التفكير..

وكما كانت الدنيا أيام بابل وآشور من ألوف السنين فراشًا ممدودًا للبذخ والمتع الفارسية، يعود التاريخ فيدخل فى دورة أخرى مماثلة، لكن على مستوى أعلى هذه المرة، فالحياة الآن مسلحة بكل ما يمكن أن يهبه العلم والالكترونيات من متع

مضاعفة، ولذاذات سهلة، وقوى جهنمية مدمرة.

وفي المتاحف التي زرتها توقفت طويلا أمام اللوحات الفنية الحديثة، وقطع النحت المعاصرة، وبعضها مجرد شخبطة بالألوان، أو زلطة مقلوبة على رأسها، أو مجموعة أسياخ من الحديد الزخرفي، وأحيانًا مجرد كومة من الحديد الصدئ، أو صفيحة زبالة..

سمة أخرى من سمات هذه الحضارة المادية التي أعلنت الثورة على القيم الخلقية والدينية نراها هنا تعلن الثورة على القيم الجمالية، وتحاول إعلاء التنافر على الاتساق، والفوضى على النظام، فتكسر التناظر، وتحطم المألوف، وتصدم العين بالجديد حتى ولو كان قبيحًا.. واليهودي بيكاسو - ولا شك كان هو البادئ بهذه الثورة، ولكن ما لبث أن تجمعت خلفه قبيلة من المريدين والأتباع من كافة مدارس الرسم الجديدة في كل بلد.

ألم يفعل كارل ماركس نفس الشيء في الفلسفة والسياسة.. فيعلي الصراع على التوافق، والتناقض على المصالحة، والحرب الطبقية على التفاهم، والحقد على التواد والتكافل الاجتماعي؟

ألم يبارك تروتسكي الحقد باعتباره الرافعة المقدسة التي سوف تقلب التاريخ؟

ألم يكن الجميع كتيبة متآلفة صنعت لنا بأفكارها هذا العصر المادي المضطرب الذي نعيشه، والذي نسير فيه على غير هدى،

أو على هديٍ من أفكار جاهزة صنعت لنا صنعًا، وغسلت بها أدمغتنا غسلًا بفعل كتب وإذاعات ونشرات وروايات وأفلام ومتاحف وأغانٍ؟

ثم ماذا؟!

ثم إلى أين يدفع هذا القطيع البشرى؟

إن الإكثار من الحلوى يسوس الأسنان، والإسراف فى الأكل يورث البدانة والترهل، والعكوف على الشهوات يورث الخمول.. والترف يربى القسوة والبلادة..

هذا فى الأفراد..

أما فى المجتمعات فإن تراجع القيم الخلقية والدينية، وسيادة مبدأ المصلحة والمكسب، وغلبة مبدأ القوة، وتحكم الهوى فى الناس.. يؤدى إلى تفكك العلاقات الاجتماعية.. فالقيم هى التى تربط الأفراد بعضهم ببعض، بينما المصالح تفرقهم، والأهواء تشتتهم.

والقيم هى التى تخلق الإجماع والاتفاق ووحدة الهدف ومسيرة التقدم.

وحينما تضعف القيم ولا تعود قادرة على تجميع الناس.. ينفرط عقدهم.. تتفكك الأسرة.. وتنهار أسس كل أنواع العقود الاجتماعية التى تقوم عليها عمارة المجتمع والحضارة، ولا يبقى إلا

التخويف والإرهاب والقوة كوسيلة وحيدة للإمساك بالكيان الاجتماعى ولفرض النظام وحماية العقود.. فتلجأ الحكومات إلى العنف والقهر وقوانين الطوارئ وتلجأ الأطراف المقابلة إلى الإرهاب وتفجير القنابل، وخطف الطائرات، واعتقال الرهائن، وتصبح الصدارة للطغاة والجبارين، والبلطجية والإرهابيين (ألا نلاحظ حولنا بداية هذه التحولات بالفعل)

ثم ماذا بعد؟!

تحدث الفوضى، وينعدم الأمن، وتتعاقب الأزمات الاقتصادية ودورات الكساد على الناس، ويسود الضنك والكلال والإجهاد..

وترى الناس بين غارق فى المتع الحسية إلى أذنيه، سكران لا يدرى، أو منسحب معتزل ساخط وعاجز عن مواجهة الطوفان.

لقد بدأ العد التنازلى بالفعل.. بدأ السير نحو هذا الطريق المنحدر، وبدأنا نلاحظ هذه الشواهد تحدث متفرقة هنا وهناك تنذر بقرب النهاية.

ولكننا مازلنا نتبع فى حضارتنا وفى ثقافتنا وفى مجلاتنا وفى أفلامنا وأغانينا وفى موسيقانا الأوامر والتعليمات التى تأتينا من العواصم الكبرى: من لندن، وباريس، ونيويورك، وموسكو.. ومازلنا نتشرب هذه الحضارة المادية مبهورين، ونحذو حذوها، ونترسم خطاها، ونحاول تقليدها.

نحاول أن نجعل من القاهرة نسخة من لندن..

نقلد سلوكيات الخواجات، وللأسف نقلد فقط السلبيات (الظواهر الانحلالية فى الفن والسلوك) بشغف أكثر وشوق أكبر من تقليد الإيجابيات (العلم والتكنولوچيا).

وبهذا التقليد الناقص الذى نظن أننا بفضله سوف نلحق بقطار التقدم، للأسف لن نلحق إلا بعربة «الترسو» أو البضاعة، أو نتعلق بضلفة من الباب، أو سلم الخدم.

ثم لا ندرك أن القطار كله يسير إلى منحدر.. فنهلل فرحين أننا أصبحنا مثل الخواجات، وننسى أننا لنا عطاؤنا الخاص الذى يمكن أن نتفوق فيه ونسبق فيه.. وأننا بالتقليد نخسر أنفسنا.. ثم لا نصبح خواجات، ثم لا نلحق بهم فى شيء يذكر، فقد دخلنا حلبة السباق متأخرين مائة عام، ثم لن نشاركهم انتصارًا، بل كارثة وشيكة سوف تأتى على بنيانهم من القواعد.

والتسويس فى الحضارة المادية ليس سببه العلم أو الإلكترونيات أو الذرة أو سفن الفضاء، فالعلم برىء، وهو أداة طيعة فى خدمة صاحبها، إن أرادها للخير قدمت له أقصى النفع، وإن أرادها للشر أوردته المهالك.. ولكن التسويس سببه ضعف العقيدة الإيمانية أو انعدامها، فلا إيمان عندهم إلا باللحظة.. وفكرة الرب العادل والميزان والحساب والبعث والآخرة مسائل غير مطروحة فى أذهانهم.. أو مرفوضة تمامًا ولا اعتبار لها.. وما

دام لا وجود إلا للحظة الحاضرة، ولا حياة إلا حياتنا الدنيا هذه، فلنعتصرها لذة وعملاً ومتعة، ولنجمع فيها أقصى ما نستطيع من قوة ومال ونفوذ وسلطان، فلا شيء بعدها.. وإن اعترضتهم القيم والاعتبارات الخلقية فلا مانع عندهم من المساومة عليها، فكل شيء فى الحضارة المادية قابل للتفاوض، وكل شيء نسبى، ولا حقيقة مطلقة، وهذه هى الفلسفة «العلمانية» من كلمة العالم وليس من كلمة العلم ومعناها الدنيوية..

ولكنا هنا فى بلادنا نفكر بطريقة أخرى، ولنا منطلقات حياتية مختلفة.. فالرب العادل والميزان والحساب والبعث والآخرة حقائق موجودة فى داخل الأهرامات وفى مقابر الأجداد من ألوف السنين، والتوحيد حقيقة نادى بها ملوك كأخناتون، وأنبياء كإدريس وموسى وعيسى ومحمد، عليهم الصلاة والسلام.. وهى فى دمنا وإن ابتعدنا عنها سلوكيًّا.. وهى قارب نجاة لنا ولمن شاء من أهل الغرب وأهل الشرق فى الطوفان القادم، وهى لا تمنعنا من الأخذ بأسباب العلم والإلكترونيات والذرة والفضاء، ولكنها تمنعنا من سلوكية التهالك والتهافت والتقاتل والتدافع على اللحظة، وعلى جمع المال، وانتهاب الملذات، وتسول السلطة، واغتنام النفوذ والجرى وراء القوة لهدف التحكم فى الناس، وهى تمنعنا من المساومة على القيم، وتؤكد لنا أن الجمال حقيقة لا تجوز الثورة عليها بهدف القبح ولمجرد الإتيان بالبدع، وكذلك الخير حقيقة لا يجوز التنازل فيها بهدف الربح ومكاسب اللحظة.

ونحن إن تنازلنا عن هذه القيم العالية والمبادئ الرفيعة من أجل أى مكسب أو أى تقليد فإنما نتنازل عن أنفسنا وعن هويتنا وعن مقعدنا الوحيد الآمن فى سفينة نوح فى الطوفان الوشيك القادم فى الطريق.

ونحن نستطيع أن نقدم لإخواننا فى الشرق وفى الغرب - من أهل الحضارة المادية - شيئًا جديدًا وهامًّا بدلا من أن نتسول نفاياتهم ونقلد نقائصهم.. وديننا لا يمنعنا من أن نأخذ منهم العلم والصناعة والتكنولوچيا وفنون الإدارة، ولكن يمنعنا أن نأخذ منهم التبذل والتحلل، ومباذل الرقص والشرب والتفسخ الجنسى.

وصحيح أن فاترينة الحضارة المادية مبهرة تخلب العين، وتخطف البصر بمنتجاتها وإنجازاتها، ولكن لا يصح أن تخطف منا الضمير والبصيرة ونور القلب الذى خصنا الله به نحن أهل التوحيد.

ويجب أن نتذكر دائمًا أن عندنا شيئًا عظيمًا.

ويجب ألا ننسى لحظة أننا انفردنا بعلم ربانى ونور داخلى أكثر إبهارًا، وأننا لو لزمنا هذا العلم وسلكنا على هدى هذا النور فسوف نتفوق ونفوز دنيا وآخرة.. ويجب أن ندرك من نحن.. وماذا نمتلك.. وقيمة ما نمتلك.. وقيمة ميراثنا بالقياس إلى ميراثهم ولا تغرنا الظواهر.. ولا يخطفنا البريق.

أما الذين تعلقت همتهم باللحظة وقضوا حياتهم جريًا ولهاثًا

خلفها، وانقطعت همتهم عن إدراك ما وراءها فهم فى فقر مهما جمعوا، وفى ظمأ مهما ارتووا.

كلما أترعوا شهواتهم ازدادت سعارًا.. لا تعرف نفوسهم سكينة، فهم بين جوع يذهب وجوع يتجدد.. وفى نشاط أكّال لا يثمر راحة.

هم من الخارج بهرج وزخرف وبريق، ومن الداخل خواء.

وكذلك الحضارة المادية حينما توغل فى ماديتها تتحول إلى ضجيج وآلات وأضواء ومحافل ساهرة ومناظر باهرة.. ولكن لا روح ولا قيم باقية.

ثم الموت.. ولا شيء بعد.. لا حساب ولا ثواب.. هذا قولهم.. فلتفعل ما يحلو لك.. فالدنيا كلها ملكك.. هذا شعارهم.. وظنهم..

وما أبعد الفارق بين الحياتين.. فبينهما ما بين الأرض والسماء.

* * *

ونحن فى تخلفنا الحالى وأزماتنا الاقتصادية ندرك هذه الهوة التى ننحدر إليها، وندرك ما نخسره بالتقليد والتبعية، ونحاول أن نستقل بشخصيتنا وحضارتنا، ونرفع شعارات العودة إلى الأصالة.. والحل الإسلامى.. والحكم الإسلامى.. وتطبيق الشريعة.. ولكننا نختلف ونتصارع، وننقسم إلى عشرات الفرق، وعشرات التيارات بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، وبين رفض

تام للموجود ومحاولة الانقلاب عليه (جماعات التكفير والهجرة والجهاد) وبين الاكتفاء بالدعوة إلى مكارم الأخلاق، ورياضة النفس على السلوك الأمثل، والانقطاع للعبادة، وترك ما لقيصر لقيصر (الطرق الصوفية واليسار العلماني الذى يرى أن الدين مكانه القلب والمسجد، ولا يصح أن يزاول نشاطه فى الشارع السياسى).

وأنا لا أتفق مع الاثنين، ولا أرى أن الانقلاب العسكرى يمكن أن يصنع إيمانًا، ولا أرى أن الفضائل يمكن أن تزرع فى أربع وعشرين ساعة بمرسوم وزارى، ولا أرى الثورة الدموية فاعلة إلا خرابًا وظلمًا تضيفه إلى الخراب الموجود.. والخومينى مثال قريب.. كما لا أتفق مع الانسحاب الصوفى إلى قوقعة النفس ومزاولة الخلاص والنجاة بالتسابيح فى الخلوة، والدعوات الصالحة فى غار. وإنما أنا من أهل الوسط العدل، الذى يطلب الإصلاح بالتعامل مع الواقع الموجود وليس بالثورة عليه.. التعامل من خلال القنوات الشرعية المتاحة.. من خلال الصحيفة والمجلة والكتاب والإذاعة والتلفزيون.. ومن خلال قنوات الشورى.. ومن خلال الأحزاب.. ومن خلال خلق رأى عام له صوت، وله ضغط مؤثر يصل إلى الكمال التشريعى بالتدريج، وعلى مراحل.

ونحن أمام حالة «شيوع البلوى» الموجودة لا نختلف كثيرًا عن حالة شيوع الخمر فى الجاهلية التى أخرج الله الناس منها

بالتدريج التشريعي، ولا أحد منا يمكن أن يدعي أنه أقوى من الله.. فهو سبحانه أحكم الحاكمين، ولم ينزل الله بسيف التحريم على الخمر دفعة واحدة، وإنما أنزل به على مراحل..

ولا يمكن إخراج الناس من مألوفاتهم بقرار ثورى يأتى به بكباشى من فوق دبابة.. فهذه أمور جربناها وهوت بنا إلى الحضيض الاقتصادى والأخلاقى الذى نعيش فيه منذ الستينيات.

والدين ليس شعارات وهتافات، وإنما هو اقتناع وتفاعل قلبى، وتفاهم وتعاون وتطبع، وهو لا يصنع بالقهر ولا بالعنف، وإنما بالتربية والتوعية.

والاجتهاد فى الفهم مطلوب حتى مع وجود نص.. فالنص بقطع يد السارق لم يمنع عمر بن الخطاب من إعفاء يد السارق فى المجاعة، وكذلك فعل صاحب المقام الأكبر الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو الأمين على الشريعة، حينما أعفى اليد من القطع فى حالات الحرب، وكلاهما أعمل عقله فى فهم النص، ولم يكن فيما فعلاه تعطيل للنص، بل فهم مستنير له.

وحسن الفهم عن الله هى السُّنَّةُ الأَوْلَى بالاتباع من الشكليات، ولأن نأخذ عن النبى عليه الصلاة والسلام أمانته وشجاعته وعفته وسماحته وصدقه لأفضل من أن نكتفى بأن نأخذ عنه لحيته وجلبابه.. وتعطيل العقل بأى عذر هو كارثة بكل المقاييس..

وأى قول بتعطيل العقل هو قضاء تام على الدعوة وتعطيل للحيوية الباطنة فى الإسلام، وللخاصية التى ينفرد بها فى التعامل مع الواقع المتغير.

والمشكلة كبيرة.. ولا يمكن أن تحل بإطلاق رصاصة.. ولكن بالتعاون والفهم من جميع الأطراف..

هذا إذا أردنا أن نخرج من بدروم الخدم الذى نحن فيه.

إلى الوراء سر

طالعت بدهشة خبر التنظيم الشيوعي الذى قامت بضبطه أجهزة الأمن بالجيزة.. وأكثره من الطلبة وعلى رأسهم أستاذ جامعى.. وآخر مساعد أستاذ بكلية الزراعة.

والسؤال الذى تبادر إلى ذهنى.. هو: ماذا يريد هؤلاء الرفاق الجدد؟

إن لب الشيوعية هو ملكية الدولة لوسائل الإنتاج والتأميم والقطاع العام، والخراب العام الذى جربناه ورأيناه فى إنتاج هابط، وشركات خاسرة، ومؤسسات مفلسة، ومكاتب مكدسة بالموظفين العاطلين، وبيروقراطية وتخلف.

وجمال عبد الناصر لم يترك للرفاق الجدد شيئًا، فقد نزع الملكيات، وأمم الشركات، وحقق الاقتصاد الشمولى، ونفذ الأبجدية الماركسية، وخلف تركة من الإحباط العام لا تشجع أحدًا على تقليده.

وتحولت مصر إلى مسرح للتجارب والهياكل التنظيمية.. هيئة

التحرير، ثم الاتحاد القومى، ثم الاتحاد الاشتراكى، ثم الطليعة الاشتراكية، يبنى الواحدة ثم ما يلبث أن يهدمها.. وكل هذه التجارب كانت تجارب على حساب مصر وعلى حساب جيل المعاناة الذى يسوقه إلى السجون، ثم يعود فيخرجه منها، ثم يعود فيسجنه مع تقلبات الهوى والأحداث.

وأخيرًا انتهى الرجل وانتهت سياسته إلى الهزيمة والخراب الاقتصادى، وجميع تجاربه وأفكاره أخذت حظها من الامتحان.. وكان على السادات أن يبدأ من الصفر، وكان على حسنى مبارك أن يبدأ من مشاكل لا تنتهى.

فماذا عند الرفاق الجدد. وما هى شيوعيتهم القادمة بإذن الله ؟

إنهم يبيعون القطاع العام فى إنجلترا وفرنسا..

وروسيا التى أخذنا عنها فكرة القطاع العام وملكية الدولة لوسائل الإنتاج تراجعت عن أفكارها وأباحت القطاع الخاص، والصين سمعنا من داخلها من يقول إن الماركسية فكر رجعى معوق، ورأيناهم يقومون بتفكيك الكوميونات الكبيرة إلى حيازات صغيرة، ويطاردون عصابة ماوتسى تونج، ويدينون الثورة الثقافية (التى كنا نتغنى بها عندنا) ويلقون بزعمائها فى السجون.

وتراجع الفكر الماركسى فى العالم كله، وانحسر المد الماركسى على جميع الشطئان.. وشيوخ الملة الماركسية أمثال جارودى نبذوا

الملة واعتنقوا الإسلام، ومن قبل جارودى نبذ الماركسية مفكرون ماركسيون كثيرون، أمثال أندريه جيد، وريتشارد رايت، ولويس فيشر، وستيفن سبندر، واجنازيو سيلونى، وغيرهم وغيرهم.. وارتفعت رايات العصيان والتمرد فى المجر وتشيكسلوفاكيا، وأخيرًا فى بولندا، وأضرب عمال نقابة التضامن فى جدانسك، وطالبوا بإعادة النظر فى كل شىء للخروج من مأزق الفقر والتسول الذى قادتهم إليه التبعية للسوفيت..

فماذا يريد الرفاق الجدد إحياءه من الجثة الماركسية التى تعفنت قبل الأوان فى تابوت التاريخ؟!

لم يبق من الماركسية إلا التهييج والتحريض والتخريب وإثارة الأحقاد وإشعال الصراع الطبقي.

يقول تروتسكى وهو أحد أنبياء الاشتراكية:

«إن بين شكوى الفرد وطموحه وضعًا نفسيًّا فيه الكثير من كوامن الحقد.. والحقد هو أسهل معاول الصراع الطبقى».

هذا هو كلام تروتسكى، وهو اعتراف صريح بشرعية الحقد عند الشيوعيين، وشرعية استخدامه لقلب المجتمع.

ألم يقل السادات فى أحد خطبه التاريخية:

«لقد ترك لى عبد الناصر تركة من الحقد لا أجد لها إلى الآن حلًّا».

إن التأميم الذى انتزع المصانع من يد خمسة أو ستة رأسماليين مستغلين قد سلمها إلى مائة ألف لص فى المؤسسات والجمعيات التعاونية ينهبونها.. مائة ألف لص لا علم لهم بالحرفة، وهم لا يبتكرون ولا يبدعون، ولا يعملون ولا يعطون، وإنما كل همهم هو التسابق على النهب والسلب.

والعامل وقد رأى أباطرة المال وقياصرة الأرض يعرون عن أملاكهم بكل سهولة ويطردون.. أصبح يشعر بأن هيبة كل كبير قد سقطت نهائيًّا، فهو يتحول بغريزته - دون أن يدرى - إلى من هو فوقه، يحاول أن يسحب منه الكرسى ليقفز مكانه.. والحقد الطبقى بين العامل وصاحب العمل، وبين الفلاح وصاحب الأرض ينتشر كما تنتشر النار فى الهشيم ليتحول إلى منطق يحكم المجتمع كله، فإذا بكل صغير ينظر فى تربص إلى كل كبير، ويتمزق الكل إلى جبهات متقاتلة متباغضة.. سكان وأصحاب عمارات، محررين ورؤساء تحرير، عساكر وضباط، موظفين ومديرين، خدام ومخدومين، كل مرءوس يتحين الفرصة ليطعن رئيسه ويحل محله، بحق أو بغير حق..

والجالسون على كراسى الحكم يضربون كتل المجتمع بعضها ببعض، ويهددون كل فئة بالأخرى، ويشغلون الكل بالصراع الطبقى المدمر ليسلم لهم مربع السلطة الذى يجلسون عليه، يديرون منه عمليات المذابح، ويملئون المعتقلات باسم الحرية

والتقدمية ومصلحة الجماهير، ويخفون مخططهم الدموى فى ضوضاء المسيرات الشبابية، وطنين الأغانى الشعبية، وضجيج الإذاعات وصراخ الشعارات فى محاولة مستمرة لإثارة غريزة القطيع، وتحشيد الجماهير فى مواجهة أى معارضة.

ثم المثقفون يضربون بالعمال، والملاك يضربون بالفلاحين، والأغنياء بالفقراء، والرءوس الكبيرة بالرءوس الصغيرة.. ليصفو الأمر فى النهاية لفئة وطبقة جديدة، تمتلك وتحكم، وتستبد وتتسلط باسم الحزب والنظرية، وتستمتع بما لم يستمتع به رأسمالى أو إقطاعى.

وهذا هو الوجه القبيح الذى تبقى من الماركسية.

ألم نقرأ جميعًا ما طلع علينا به مؤتمر الأحزاب الشيوعية لعام ١٩٧٦ وكيف تنازلوا عن كل المبادئ الماركسية فى سبيل الفوز بكراسى الحكم.

تقول قراراتهم بكل صراحة:

حاولوا الوصول إلى الحكم بأى سبيل..

وإذا وقفت فى سبيلكم مبادئنا الخاصة بديكتاتورية البروليتاريا فدوسوها، وإن احتج عليكم القوميون فصالحوهم، وقولوا لهم نحن قوميون مثلكم.

اركبوا كل موجة لتصلوا إلى الحكم.

إعلان وصولية صريح، ومرسوم ميكيافيللية موقع عليه من كهنة المذهب، فماذا يريد الرفاق الجدد. طبعة ١٩٨٦؟

إننا مازلنا نذكر ما فعله الإخوة الأعداء فى اليمن الجنوبية الماركسية، وكيف قتل بعضهم بعضًا فى لعبة الكراسى، وكيف هدموا مصانعهم وأحرقوا بلادهم بأيديهم.

وما بين اليسار البعثى السورى واليسار البعثى العراقى معلوم.. وما بين الأجنحة اليسارية فى المنظمات الفلسطينية (وهى تواجه عدوًا واحدًا مشتركًا) معلوم..

وحيثما تحرك اليسار فى بلد تحرك معه الخراب وسال الدم.. فى أنجولا، فى البرتغال، فى أسبانيا، فى نيجيريا، فى شيلى، فى السلفادور، فى الحبشة.

وكل يسار نجد على يساره يسارًا يزايد عليه، ولا نهاية للمذابح والتصفيات والقتل.

ولا نظرية هناك.. وإنما تحريض شيطانى للأخ على أخيه، وللابن على أبيه، بحجة أن هناك من يملك أكثر.

ولم يكن ماركس علميًّا حينما انتقى من التاريخ بضع مراحل على هواه ولفق منها مذهبًا طبقه اعتسافًا على التاريخ كله، وأسقط مراحل كاملة من التحول التاريخى، لأنها تناقض مذهبه.

وإلا فما قوله عن التحول الإسلامي ؟!

لقد كان الإسلام انقلابًا حضاريًا هائلًا، فجاء بالشورى، وبالديموقراطية، وبحقوق الإنسان، ولم يأت بهذا نتيجة انقلاب مناظر في نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج في قريش، ولا جاء نتيجة تغير البنية المادية التحتية في مكة كما يدعى الرفاق المتفلسفون، بل جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة.. هادمًا بذلك الفكر الماركسي من أساسه.

ثم إن فكرة العامل الاقتصادي الواحد الذي جعل منه ماركس إلهًا تصدر عنه الأشياء وسببًا وَحِيدًا تتداعى بفعله كل التغيرات التاريخية.. هذه الفكرة سقطت علميًّا والرأي الآن أنه لا يوجد سبب واحد مستقل وفعال، وإنما هناك عوامل متعددة تؤثر في بعضها تأثيرات متقابلة، فالعامل الجوهري اليوم يمكن أن يكون عاملًا ثانويًّا في الغد.. والعامل الاقتصادي بهذا لا يصلح لأن يكون إلهًا تصدر عنه الأشياء.

ثم إن كلامه عن طهارة البروليتاريا، ونقاء البروليتاريا، وكأنها جنس آخر قادم من المريخ، أو شعب الله المختار، هو كلام مضحك وغير علمي.

ثم من أين جاءوا بأن المادة سبقت الفكر في مبدأ الكون، ومَنْ كان منهم حاضرًا في مبدأ الكون ليدعى أن شهادته

علمية؟! أليس هذا هو الشطح الغيبى الذى يحاربونه هم أنفسهم؟!

إن ماركس لم يقدم علمًا.. بل قدم ظنونًا، واصطنع تلفيقًا بهدف التحريض والتهييج لقلب النظم الموجودة.

وليس فى الدول الشيوعية دولة واحدة يختارها الإنسان مهجرًا..

اعطونى اسمًا واحدا لرجل قفز على سور برلين من الغرب إلى الشرق.. أو فر من إنجلترا ولجأ إلى موسكو، أو هرب من أمريكا إلى الصين..

وما زال هناك الفقراء والأغنياء حتى كتابة هذه السطور..

وحتى هذه اللحظة هناك من يركب بسكليتة وهناك من يركب عربات الزيم الفاخرة، وهناك من يمشى على قدميه فى موسكو نفسها.. وفى بكين.. وفى فيتنام.

وليس صحيحًا أن الشيوعية هى الطريق الوحيد للتقدم.

فالعمل المخلص الجاد يرتفع بالأفراد وبالأمم على أى منهج.. واليابان وصلت إلى مقاعد السيادة والصدارة فى العالم بمنهج رأسمالى.. والعملة اليابانية اليوم تركب على أكتاف الروبل والدولار والاسترلينى ومثل اليابان ألمانيا الغربية وكوريا الجنوبية وتايوان.. فى حين أن المعسكر الشرقى كله

غارق فى البيروقراطية والتخلف والأزمات، وكوبا وبولندة والمجر وألمانيا الشرقية نسخ مكررة من المشاكل الاقتصادية، والقروض والمعونات والتسول السياسى.

ولم نسمع عن فائض الزبد وفائض القمح إلا فى المعسكر الغربى..

الدنيا تغيرت..

ولم تعد المشكلة.. هى يمين أو يسار.. وإنما المشكلة هى هل تعمل أو لا تعمل.. وما حظك من العلم.. وما حظك من الإخلاص والجدية والانتماء.. وما حظك من الانتظام والمثابرة والأخذ بأسباب العصر؟!

والاقتصاد الحر والمناخ الديمقراطى هما المدخل إلى القرن الواحد والعشرين.. أما دول القمع البوليسى، والاقتصاد الشمولى، ومجتمعات الطبل والزمر والشعارات فمكانها فى مؤخرة الرَّكب.. ومصيرها أن تظل تتصارع وتقتتل فى داخلها حتى تفنى غير مأسوف عليها..

فماذا يريد الرفاق الجدد..؟!

إن العمال فى بولندة رفضوا الشيوعية..

والفلاحون فى الصين ضاقوا بالعمل فى الكوميونات الكبيرة..

والطلبة فى شنغهاى ساروا بالألوف فى مظاهرات ينادون

بالديمقراطية.. أول مظاهرة فى معسكر شيوعى نقلتها البرقيات فى شتى أنحاء العالم..

فماذا يريد حضرة أستاذ الفلسفة الذى يحرض شبابنا ويستغل معاناته وأوجاعه ليقلب نظام الحكم؟ أين الفلسفة عند أستاذ الفلسفة؟

إن طبول المقالات التى تملأ الصحف لن تستطيع أن تحول السواد إلى بياض، ولا الهزيمة إلى انتصار، فالواقع أقوى من حروف المطابع التى تنتهى فى المساء إلى سلال المهملات.. ثم لا يصح إلا الصحيح برغم كل الطبول والمجامر والمباخر.

ألم يكتبوا عن المجاهدين الأفغان فيسمونهم المتمردين.. هم أنفسهم الذين كانوا يقولون عن المجاهدين الفيتناميين أبطالاً الآن لا يرون فى المجاهد الأفغانى الذى يحاول أن يحرر أرضه.. بطلاً.. بل متمردًا.. لمجرد أنه يحارب السوفيت.

وهم مسلمون ويقرءون عن الغازات السامة والنابالم والقنابل الحارقة التى تقتل وتدمر وتفنى المسلمين الأبرياء العزل فلا تتحرك فيهم نخوة أو شهامة، وإنما يكتبون بلغة الأجانب والعملاء، فيسمون المسلم المكافح الذى يقاتل ليحرر أرضه متمردًا.. وهذه مانشتاتهم فى جريدة حزب التجمع.

لا أكتب هذا الكلام تحيزًا لليمين الأمريكى ضد اليسار

السوفيتي.. فالمخابرات الأمريكية والعسكرية الأمريكية أشد خطرًا وأخفى خططًا وأكثر تآمرًا على الدول النامية الفقيرة.. والبلاء يحاصرنا من الغرب كما يحاصرنا من الشرق.

ولا يعني كلامي أن نعود إلى الإقطاع أو إلى زمن فاروق وزمان البشوات، فالتاريخ لا يعود إلى الوراء، والزمن لا يلوي عنانه إلى الماضي، وإنما هو يمضي قدمًا إلى المستقبل، وهو يأخذ معه حصاد الماضي وخبرة الحاضر ليصنع بهما المستقبل.

كفانا صراعًا طبقيًا يطحن أجيالنا بين فكين من الحقد على مدى ٣٤ سنة من عمر الثورة، فلا يخرج من بين فكيه إلا الأضغان والسخائم، حتى الفن - مسرحًا وسينما ومسلسلات تليفزيونية - أصبح لا يخرج من طاحونته إلا فيضًا من الأحقاد بين أغنياء وفقراء، وبين باشوات لا وجود لهم وفلاحين أسطوريين لا يعيشون إلا في خيال المؤلف.

على المؤلفين الجدد أن يخرجوا رؤوسهم من دوامة الستينيات ويأخذوا نفسًا حزًا عميقًا، وينظروا إلى المتغيرات والمستجدات الكثيرة حولهم، ويتمثلوا الروح الجديدة، والآفاق الجديدة الرحبة.. ويقرءوا كثيرًا.. ويعلموا أن كارل ماركس قد مات وشبع موتًا هو وأفكاره، وأن جوركي لم يعد هو مؤلف هذا العصر، وأن تيارات أدبية جديدة قد دخلت الساحة.

نقول لرفاق اليوم: إن الشعارات التى يرفعونها ويتغنون بها قد انتهت، وإن الموقف اليوم يطرح تناقضات جديدة تحتاج إلى فكر جديد ومنهج جديد، وإنهم مجرد حفريات وكائنات متحفية ونباتات متحجرة.. وإنهم لن يجدوا من يمشى وراءهم حينما ينادون.. إلى الوراء سر.. فلا شىء فى الدنيا يسير إلى الوراء غيرهم.. وإنما الدنيا تندفع نحو المستقبل.

عام الهستيريا

تاج الشرف والبطولة هذا العام من حق المجاهدين المسلمين فى أفغانستان الذين يختمون عامهم الثامن من القتال المرير مع الاتحاد السوفيتي، أعتى وأكبر دولة مسلحة حتى الأسنان، تحاربهم بالطائرات والدبابات، والمدافع والقنابل، والغازات، والأسلحة الكيميائية، وهم قِلَّة معتصمون بالجبال، لائذون بالغابات.. والعالم بأجمعه من شرقه إلى غربه يحييهم ويشد أزرهم، ويهتف لهم ويبارك صمودهم، ماعدا حزب التجمع عندنا وجريدته الأهالى التى تسميهم المتمردين والخارجين على القانون، وهى نفس الأقلام التى كانت تهتف لمناضلى فيتنام وتضع على رءوسهم أكاليل البطولة، لأنهم كانوا يقاتلون أمريكا، وكأنما الشرف يتحول إلى جريمة إذا كان المحتل سوفيتيًّا، ودم الناس يصبح مباحًا إذا أراقته دبابات شيوعية، بصرف النظر عن القضية.. فدائمًا لا قضية.. بل تبعية.

ولكن جورباتشوف الذكى قد خانهم هذه المرة واعترف بأن التورط فى غزو أفغانستان كان أكبر أخطاء الاتحاد السوفيتي، وهكذا غسل يديه من ذنوبهم.

ولكنها أقلام ملكية أكثر من الملك، غيورة على الباطل أكثر من أهل الباطل.

ولا أدرى ماذا سيكون ردهم يوم يسألهم الله.. مع أى صف وقفوا.. هؤلاء الرفاق الذين كانت بضاعتهم دائمًا أنهم مع الضعفاء والمطحونين ضد الطغاة والجبارين.

ومَنْ كان المطحونون طوال الأعوام الثمانية؟ ومَن الذين كانت تطحنهم آلة الحرب السوفيتية الجهنمية وهم أصحاب الأرض وأصحاب الحق وأصحاب الوطن.. وأطفالهم ونساؤهم هم اللاجئون.. أربعة ملايين لاجئ أفغانى مسلم مكدسون فى قرى باكستان.

ولا أدرى بماذا سيكون ردهم..

أغلب الظن أنهم مطمئنون إلى نظرتهم بأن الإنسان سوف يذهب سُدى، وأنه لا بعث ولا حساب ولا مساءلة.. ولا تعقيب على مقالات الأهالى.

بل لم يبق الكثير يا رفاق.. لم يبق إلا ما تَبَقَّى من عمر كُلٍّ منا.. ثم ترفع الأستار وتُهتك الحُجُب، ربما الغد وربما بعد أيام، وربما بعد شهور، ثم الموعد الله.

* * *

وعلى الشاطئ الآخر على أقصى اليمين لم تسلم التنظيمات

الإسلامية السرية من الانحدار إلى هستيريا العنف والرصاص والإرهاب، وإلى درك إجرامى هو فى جوهره ضد الدين وضد الإسلام..

والنتيجة المؤسفة أن التيارات الإسلامية التى تعمل على الساحة العربية أصبحت تثير الرعب عند الكثيرين، حكامًا ومحكومين.. والنموذج الإيرانى الذى رفع راية الإسلام أعطى قدوة سيئة لكل اتجاه إسلامى.. وعصابة الآيات التى ثارت على حكم الشاه وطردته، وثارت على حكومته بدعوى أنها حكومة جاهلية، رأيناها فى النهاية تستبدل هذه الجاهلية بحكومة بربرية، وتستبدل طاغوت الشاه بحمامات دم تقيم فيها المجازر لكل الخصوم، من كل المذاهب، وتستبدل جهاز مخابرات السافاك بعصابات إرهابية دولية لخطف الرهائن، وزرع الألغام، وتفجير الطائرات.. ثم فى النهاية رأيناها ترسل بعثات للتخريب فى موسم الحج، وتتطاول على الكعبة برايات الخومينى وصور الخومينى وهتافات.. الله أكبر خومينى رهبر..

ولا يمكن أن يكون هذا النموذج إسلاميًا.. بل هو تآمر سياسى وتشويش تاريخى.

والقوى الكبرى حريصة على أن يستمر هذا التشويش التاريخى أطول وقت ممكن وهى تمده بالسلاح سرًّا وإن كانت تلعنه جهرًا.. وهى تشجبه فى المؤتمرات ولكنها تغازله من تحت

المائدة.. لأنها مستفيدة بهذا التشويش، لأنه يضرب الإسلام فى القلب، وهم يخشون الإسلام، لأنه أكبر قوة تعبوية فى المنطقة.. ولهذا يتطامنون ويستريحون لهذه الحرب الدائرة فى الخليج.. والبوارج الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والسوفيتية التى تسبح فى مياه الخليج لا تحاول أن تمنع هذه الحرب، بل هى فقط تحرسها حتى لا تتجاوز النطاق المحلى المطلوب لها، وحتى لا تتسع فتحرق أيديهم، وإنما تظل فى النطاق الذى يحرق أيدينا نحن وحدنا.

أما التيارات الإسلامية الأخرى مثل التكفير والهجرة، وجماعات الجهاد، فلم تكن أحسن حظًّا.. وتحت ستار اتهام المجتمع المصرى بالجاهلية انطلقت تطلق الرصاص هنا وهناك، وتصيب أبرياء لا ذنب لهم، فكانوا كمن حاول أن يتجنب الوقوع فى جنحة فوقع فى جناية.

وضاع بين الأرجل التيار الإسلامى العريض للأغلبية من البسطاء الطيبين، الذين يفهمون الإسلام بأنه مكارم أخلاق، وقيم، ومحبة، ورحمة، وتسامح، ومودة، ودعوة إلى الله بالموعظة الحسنة، وتنافس فى عمل الصالحات، ولا يفهمون هذا التراشق بالرصاص والقنابل.

وجاء الخطأ من اجتهاد سياسى خاطئ بأن المجتمع الذى نعيش فيه مجتمع جاهلى وكافر، فيلزم أن نخرج عليه بالسيف..

ومن هذه الخدعة ومن هذه التلبيس الشيطانى خرج التنظيم السرى للإخوان، ومن بعده خرج تنظيم التكفير والهجرة ثم الجهاد.. ومنه أيضًا جاءت هذه العصابة من الآيات فى إيران.. وقد تسلحت عصابة الآيات بسلاح آخر أكثر مكرًا هو دعوى الإمام المعصوم الذى يحكم بسلطة إلٰهية لا تناقش.. فكانت الطامة الكبرى التى انتهت بنا إلى ما نحن فيه.

والحقيقة أن كل هذه التخريجات والاجتهادات هى الكافرة وهى الجاهلية وليس مجتمعنا..

واقرأ عن عصر صدر الإسلام أيام العباسيين والأمويين فستجده لا يقل انحلالا عن عصرنا.. واستمع إلى ما يقول أبو نواس فى الخمر وفى الغزل بالمذكر وفى القيان والغلمان والجوارى والغيد الحسان:

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة   قم صاحبى نعص جبار السماوات

واقرأ عجائب الانحلال فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى.. واقرأ سيرة خلفاء بنى أمية وبنى العباس، وما فعل السفاح الأشهر الحجاج بن يوسف الثقفى فى خدمة سادته، ثم فتن القرامطة والشيعة والباطنية، وما أشاعوه من بلبلة وكفر.. وستعلم على وجه اليقين أن مجتمعنا الذى نعيشه الآن أكثر إيمانًا وأكثر إسلامًا، وأن قاهرة الأربعين ألف مئذنة،

وشاشة التلفزيون التى يجلجل فيه صوت الشيخ الشعراوى، ومنارة الأزهر الشريف، ثم الكثرة من البسطاء الطيبين الذين يسعون إلى المساجد فى غلس الفجر ويحملون أمانة لا إله إلا الله فى زمن ردىء وعصر مرهق.. هم مسلمون أوفياء وليسوا كفرة ولا جاهليين.

سوف تسأل: وكيف كان المسلمون فى أيام الدولة الأموية والعباسية سادة الدنيا برغم الانحلال والفتن؟! فأقول لك: بسبب العلم.. فقد كان فيهم ابن سينا، وابن رشد، وابن الهيثم، وجابر بن حيان.. وكانت علوم الفلك والطبيعة والرياضيات تشع على الدنيا من بغداد.

ثم دارت الدائرة وانتزعت أوربا وبريطانيا وفرنسا راية العلوم من أيدينا، وغلبتنا بالمدفع والدبابة والغواصة والبارجة.. وأصبح الغرب اليوم سادة الدنيا، برغم الانحلال والإيدز والمخدرات.

نحن مسلمون يا إخوان ولسنا فى حاجة إلى انقلاب إسلامى، نحن فى حاجة إلى دعوة توقظ الضمائر وتحرك النفوس، لا إلى نظام بوليسى يميت القلوب.

نحن جهلة ولسنا جاهليين.

متخلفون لا كفرة..

نحن فى حاجة إلى انقلاب علمى نلحق فيه بما فاتنا من علوم الذرة والفضاء والتكنولوچيا والكومبيوتر.

نحن فى حاجة إلى ثورة فى التعليم، وانقلاب فى الجامعات.

وإذا كان فى إسلامنا عيب فبسبب هذا التخلف العلمى، وبسبب هذا التقصير فى الأخذ بالأسباب..

وديننا لا يعرف هذه القسمة بين علم وإيمان، وهو لا يكتمل إلا بالاثنين.. فالإسلام الحقيقى علم وعمل ومكارم أخلاق إلى جانب الإيمان بالله وعبادته وتقواه.. وهذا الجانب العلمى من الدين هو ما ينقصنا.. فالمسلمون هم الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض.. ونحن لا نتفكر.. وهم الذين يطلبون الزيادة فى العلم كل يوم ويقولون: ﴿ربِّ زدْنِي عِلْمًا﴾ ونحن لا نطلب زيادة فى علم ولا زيادة فى معرفة.

وبسبب هذا الفراغ الفكرى والدينى وقعنا فى حبائل الفكر السياسى الخاطئ، والاجتهادات السياسية الخاطئة، وفى شباك هذه المقولة الشائعة بأننا نعيش فى مجتمع جاهلى كافر لابد من الخروج عليه بالسيف..

واستدل القائلون على كفرنا وجاهليتنا بالآيات:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ (٤٤ – المائدة)

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ (٤٥ – المائدة)

﴿ومن لم يحكم بمـا أنـزل الله فـأولئـك هم الفـاسقـون﴾ (٤٧ - المائدة)

وهى آيات نزلت فى حق الذين حرفوا الإنجيل والتـوراة، وافتروا على الله وحكموا بما لم ينـزل.. لقد وردت بخصـوص أهـل الكتاب.. والسيـاق الذى جـاءت فيه هـو سيـاق أهـل الكتـاب ومـا فعلوه بكتـابهم.. ولكن الـذين أشعلوا الفتنـة يـرفضون هـذا التفسير الـذى يحتمه السيـاق، لأنهم يريـدون سندًا شرعيًّا للقتل، ورخصة للانقلاب، وتصريحًـا إلهيًّا بسفـك الدم.

ومرتكبو المعاصى من المسلمين ليسوا كفرة بنص القرآن:

﴿والـذين إذا فعلوا فاحشـة أو ظلموا أنفسهم ذكـروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومَنْ يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصِرُّوا على مـا فعلوا وهم يَعْلَمُـون * أولئـك جـزاؤهم مغفـرة من ربهم وجنـاتٌ تجـرى من تحتهـا الأنهار خـالـدين فيهـا وَنِعْمَ أجْـرُ العاملين﴾. (١٣٥، ١٣٦ - آل عمران)

وربنا فى الحديث القدسى ينزل إلى السماء الدنيـا كل ليلة فينادى:

من يستغفر فأغفر له.. ومن يتوب فأتوب عليه.

وهذا هو ديننا السمح، وهذا هو ربنـا العفو الغفـار الودود الـرؤوف.. وشيخ الإسـلام العز بن عبـد السـلام لـه فتـوى

شهيرة بشأن المسلم الذى نزل بساحة قوم يشيع فيهم الحرام ولا يتيسر الحلال.. ويسأل ماذا يفعل.. فلا يقول له الشيخ اخرج عليهم بالسيف بل يقول: خذ من الحرام بقدر حاجتك لتعيش ولا تزيد.

ولكن الذين يريدون أن يحولوا مصر إلى لبنان، ويحولوا الوطن العربى إلى حمام دم يقولون: بل تخرج عليهم بالمدفع الرشاش وتطلق الرصاص على الجميع.. فالكل كافر وجاهلى ومرتد.

إنها فتنة لن يَأْتِىَ منها خير، ولن ينجو منها أحد،
وسوف يحترق فيها الكل، والمثال اللبنانى أمامنا،
وفى النهاية سوف يحترق فيها مشعلوها،
ولن يفيد منها إلا إسرائيل والقوى الكبرى،
ولهذا يخططون.. ولهذا يرسمون.

ويخطئ من يتصور أن الحل هو تنحية الدين من المعركة وتجنبه بالكلية.. ثم العمل السياسى من خلال القومية العربية وحدها، وهو تصور خاطئ، لأنه سوف يخسر بذلك القوة التعبوية للإسلام فى معركة المصير، ولن تجمع راية القومية أحدًا.. وجمال عبد الناصر لم يستطع أن يفعل بالقومية العربية شيئا فى حرب ١٩٦٧.. وراية القومية العربية البعثية أو (العبثية) لم تجمع سوريا على العراق، لكن صيحة الله أكبر

عبرت بنا القنال فى حرب ٧٣ ودكت حصون بارليف، وجمعت العرب صفًا واحدًا فى المقاطعة البترولية، وصنعت لنا انتصارًا.

بل الحل فى نظرى هو تنحية الاجتهادات السياسية الخاطئة، ومحاربة الفكر الفاسد القائل بتكفير المجتمع، وفضح هذا الفكر وكشفه.

والقلة المنحرفة لا يجب أن تثير فينا الخوف من الإسلام.. هذا الخوف المرضى الذى يصل بنا إلى اتهام الإسلام وتنحيته من الساحة.. ثم خسارة أكبر قوة تجميع يمكن أن تجمع العرب فى معركة مصيرهم.

والذى يشاهد صلاة العيد فى الخلاء وكيف تجمع كلمة «الله أكبر» فى ساعة زمان الملايين يفترشون الميادين راكعين ساجدين مهللين.. يعرف سحر هذه الكلمة ويعرف الشحنة التى تحتويها.

والإسلام هو الذى صنع الشىء الذى اسمه الأمة العربية، فلم تكن هناك أمة عربية قبل الإسلام.. لم تكن هناك سوى قبائل متناحرة.

والقومية العربية بدون الإسلام هيكل مجرد مفرغ من طاقته، عار من شحنته، ولا قدرة لها على فعل شىء.

لكن أى الرايات الإسلامية نرفع..؟ هذا هو السؤال..

أقول: إسلام الأخوة.. إسلام الوحدة.

إسلام القيم ومكارم الأخلاق.

إسلام الشجاعة والأمانة والوفاء والثبات.

إسلام العلم والعمل.

إسلام العدالة والحرية.

أما رايات الفتنة التى تريد أن تتخذ من الإسلام أداة انقلاب لضرب النظم القائمة فهى الرايات المتهمة التى لا يجب أن نكتفى بتنحيتها وتجنبها، وإنما لابد من محاربتها وكشفها وفضحها..

أما الأصوات التى تنادى بالتطبيق الفورى للشريعة فنقول لها: إن الله لم يحرم الخمر بشريعة فورية، وإنما أنزل تحريمه للخمر على مراحل، وذلك لشيوع الخمر فى وقتها، ونحن اليوم نعانى من شيوع بلايا مماثلة تحتاج إلى تدرج مماثل.

ونقول: إن الشريعة مطبقة بالفعل فى ثلاثة أرباع القوانين الموجودة بمصر، وإن الباقى يحتاج إلى دراسة واستنباط واجتهاد وتفهم لمتغيرات العصر، ولمقتضيات الظروف.. والكلام عن مقتضيات الظروف ليس بدعة، فالنبى عليه الصلاة والسلام لم يقطع يدًا فى ظروف الحرب، كما أن عمر بن الخطاب لم يقطع يدًا فى ظروف المجاعة.

ونقول لهم: إن الشريعة ليست موضوعًا للمزايدة الحزبية.. ولقد اتخذها جعفر النميرى موضوعًا للمزايدة فى السودان وفشل.. ولا نريد أن نكرر خطأ النميرى.

ونذكر جميع الأطراف فنقول:
إن مصر بلد التوحيد،

وهى بلد الأزهر، وبلد الأربعين ألف مسجد، وهى مركز الدعوة الإسلامية فى العالم العربى.

ونحن فى مصر نحاول بالشورى وبالديمقراطية أن نتقدم، وأن نصلح من أنفسنا، فما هى البدائل التى تريدونها لنا للتقدم السريع المطلوب؟

* * *

البديل الإيرانى؟!
أو البديل اللبنانى؟!
أو البديل العدنى؟!
أو البديل الليبى؟!
أو البديل السورى؟!

فتلك هى الأراضى التى حظيت بالانقلابات السعيدة.. وفازت بالثورات التقدمية والدينية، فكيف حالها؟! وماذا فعلت؟!

إن ليبيا التى كانت أغنى دولة عربية - بحساب تعداد

سكانها - أصبحت الآن أفقر دولة.. وأصبح المواطن الليبى يقف فى طابور ليجد حصته من الأرز والسكر.

وإيران خسرت بترولها وشبابها وأرضها فى حرب عقيم.
وسوريا مفلسة ومدينة ومحتلة من إسرائيل ومحكومة بالسوفيت.
ولبنان تنزف.
وعدن تتسول المعونات.
لقد اختارت مصر الطريق السليم بالفعل، وصححت مسارها الذى انحرف فى الستينيات وتبنت الخط الحضارى المعتدل.
وهى الأمل فى زعامة إسلامية عربية رشيدة.
هذا إذا وَعَى الكل وثابوا إلى ركن شديد.

* * *

وعلى صعيد العالم من حولنا حدثت هستيريا من نوع ثالث، هى هستيريا الدولار الذى أوشك أن يصل إلى نصف قيمته، وتدهورت معه أسعار الأسهم، وارتفع الذهب، واختلت الموازين الاقتصادية.

ولكنها مثل هستيريا اليسار وهستيريا اليمين، كانت هستيريا مفتعلة ومصنوعة، فكما يعلم اليسار حقيقة وضع المجاهدين فى أفغانستان وأنهم الفئة المطحونة والمجنى عليها برغم مهاتراته، وكما يعلم إرهابيو اليمين أن القتل ضد شريعة الله برغم شعاراتهم المعلنة.. كذلك تفتعل أمريكا هذا الهبوط للدولار وتصنعه صنعًا

لتضرب به التجارة اليابانية والتجارة الأوربية، وتنافس بالسعر الأرخص فى كل المنتجات.. كما تسرق نصف قيمة المليارات التى أودعها العرب ودول البترول فى البنوك الأمريكية بطريقة ذكية ومشروعة، كما تخفض قيمة العائدات العربية النفطية إلى النصف، كما تخفض قيمة ديونها وتعالج العجز فى ميزانها.. وهكذا تضرب جميع العصافير بحجر واحد.. وتقف باكية متباكية وكأنها الضحية البريئة لتقلبات السوق وحمى البورصة.. كما تفعل مع طفلتها المدللة إسرائيل.. تسلحها بمعونات الهلاك والدمار وتمدها بكل شىء، من الرغيف إلى الصاروخ، فإذا اعتدت إسرائيل على جيرانها العرب بنفس الأسلحة ونفس المعدات لاذت أمريكا بالصمت، أو بادرت إلى الفيتو لتمنع قرار مجلس الأمن من الاحتجاج.

ومن وراء أمريكا يعمل سماسرة الهستيريا فى العالم العربى.. لنفس المخطط تحت شعارات مزيفة.. وكلهم - القذافى، والخومينى، والأسد - يعلمون تمامًا ما يقومون به من تخريب متعمد مرسوم.. ويعلمون تمامًا أن تصريحاتهم الرسمية هى نوع من «الاستهبال العام».

ولكن يبدو أنهم جميعًا مثل الرفاق الشيوعيين يظنون أن أحدًا منهم لن يموت، وإذا مات فهو ذاهب سُدًى إلى حيث لا بعث ولا حساب ولا مساءلة.. وأن الدنيا للشطار.. وأن من يخطف

الخطفة ويهرب من عيون الشرطة والمخابرات والعقاب الدنيوى فسوف يفلت إلى الأبد.. ولا أدرى من أين أتوا بهذا الكلام، والعالم حولهم شاهد على الحكمة والنظام.. وهم يرون فيه الإلكترون لا يستطيع أن يفلت من قبضة الذرة إلا بكم من الطاقة يساوى حركته.. وأنه لا توجد ثغرة واحدة فى صنعة الخالق.. فمن أين لهم أنهم سوف يفلتون؟!

فليطمئنوا.. فلم يتبق لأحد منهم إلا ما تبقى من عمره.. ثم غدًا الموعد الله.

سقوط اليسار

لو سئلت.. ما هى المشكلة المصرية التى لها الأولوية المطلقة الآن؟ لقلت دون تردد: هى الفساد.

السرقة، والغش، وخراب الذمم، والكسل، والسلبية، والأيدى الممدودة التى تريد أن تأخذ ولا تعطى، والأصوات التى تطالب بالحق دون أن تؤدى الواجب، والنهم، والجشع، وتعجل الربح، وضياع القيم، وعدم الانتماء.

المواعظ لم تعد تجدى، لأنها تخرج من أفواه لا تعمل بها. الكل يهدى ولا مهتد..

لو سُئلت: ما السبب؟! لقلت: سقوط الهيبة، وانعدام القدوة، وتراخى قبضة الحاكم.. إن الحاكم الذى يحاول أن يرضى الكل سوف يخضع لأهواء الكل ولن يصبح حاكمًا، بل محكومًا.

والحاكم الأمثل لا مفر له من أن يغضب البعض، ويصدم البعض، ويواجه البعض بما لا يرضى.

لقد وقفت مسز تاتشر أمام إضراب عمال الفحم ولم تهادن ولم

تلن، وطرحت القطاع العام للبيع برغم الاحتجاج والهتاف وأصوات الاستنكار، وأنقذت اقتصاد بلادها، وعالجت التضخم، وأعلنت أنها عائدة لتستأصل الاشتراكية من إنجلترا.. وحملتها أصوات الأغلبية إلى الكرسى من جديد تقديرًا لشجاعتها.

والإصلاح أحيانًا يحتاج إلى جراحة وإلى إسالة بعض الدم لإنقاذ المريض من موت محقق والطبيب لا يكون طبيبًا إذا افتقد هذا الحد الأدنى من الجرأة ليجرح ويضمد عند اللزوم.

وفى مصر تركة من الأخطاء القاتلة لابد من مواجهتها فى جرأة.

مجانية التعليم الجامعى التى حولت الجامعات إلى مجموعة كتاتيب لا تعليم فيها ولا تربية، ولا حتى مجانية (انظر الدروس الخصوصية) وأضعف الإيمان أن يحرم الطالب الراسب من هذه المجانية، وأن يدفع تكاليف تعليمه، وإلا كان حالنا حال من يمول الفشل والرسوب والإهمال من الخزينة العامة.

والخمسون فى المائة عمال وفلاحون فى مجلس الشعب نسبة لا مثيل لها فى الصين أو فى الهند أو فى روسيا ولا فى أى بلد رأسمالى أو اشتراكى، والتى لم تكن سوى رشوة قدمها عبد الناصر ليستدر بها التصفيق والهتاف.

وحق التعيين لخريج الجامعة فى الوظائف الحكومية، سواء

وُجِدَتْ هذه الوظائف أم لم تُوجَدْ، وسواء أكانت هناك مسوغات وضرورات للتعيين أم لم توجد.. وهى رشوة أخرى وبدل بطالة قدمه عبد الناصر من خزينة مفلسة ترزح تحت عبء الديون لكل عاطل متبطل ليقود له المظاهرات، ويوقع على الاستفتاءات.

غوغائية زعيم أراد أن يكتل الشارع خلفه ليضرب به أى طبقة تناوئه.

الدرس الأول الذى تعلمه فى سنة أولى شيوعية.. فى كيفية الحفاظ على الكرسى.. اضرب الطبقات بعضها ببعض وأشعل فتيل الحقد الطبقي.. ثم احتفظ بعربة الإطفاء الوحيدة.. يلجأ الكل إليك، ويُقَبِّل الكل قدميك.. ويستنجد بك الخصم والصديق.. لأنك تكون حينئذ مرفأ الأمان الوحيد فى بحر الفتن والأحقاد والتناقضات.

وهكذا فعل صاحبنا.. فقد وعى الدرس وطبقه بحذافيره.

وهكذا ترك البلد بحرًا من الفتن والأحقاد والتناقضات، وميراثًا من الخراب لكل مَنْ حَمَله مِنْ بعده.

ولم يجد السادات مفرًّا من أن يلقى بهذا الحمل على خليفته من بعده، دون أن يبت فيه أو يواجهه.

ولم يجد حسنى مبارك إلا أحد خيارين: أن يؤجل المشكلة ويلقى حملها على مَنْ يخلفه، أو يواجهها برمتها، وكلا الخيارين صعب.

ولكن هل كانت الزعامة دائما إلا الخيار الصعب؟

وإنى أشفق على حسنى مبارك، فكل خيار منهما باهظ الثمن.

لو أنه أعطى نفسه تمامًا لمشكلة الاقتصاد والإنتاج واختار تأجيل المواجهة فإن التعليم بشكله الراهن لن يخرج له منتجين، ولا التوظيف الحالى سوف يدفع بالإنتاج الدفعة التى يرجوها.. بل الهيكل الوظيفى والهيكل التعليمى كلاهما يدفع بمصر إلى الوراء، وإلى مزيد من التخلف والبيروقراطية.. وأصوات الخمسين فى المائة من عمال وفلاحين هى أصوات معوقة، وهى فرملة القصور الذاتى الذى سوف يمنع أى تطور.. وأى زيادة فى الإنتاج سوف تذهب فى بالوعة الدعم والتضخم السكانى.. ثم لا يجد فى النهاية مخرجًا.. سوى أن يقترض ويقترض ويقترض.

ولو أنه اختار المواجهة فسوف يحتاج إلى الجيش والبوليس للضبط والربط وتحسب العواقب، وهو لا يريد الملاحة فى العواصف، ولا يحب المخاطرة، ويخشى على الديمقراطية الوليدة من القوة ومن أجهزة القوة.

لكن بدون المواجهة لا إصلاح، وإنما مجرد مسكنات ومراهم.. فى حين أن الصديد يضرب فى الجرح والمرض يشتمل الجسد كله.

ومجانية التعليم الجامعى تغرى العمالة الريفية بأن تهجر الأرض ليحقق كل فلاح حلمه فى أن يصبح مهندسًا أو طبيبًا أو محاميًا، وينقلب معمل التفريخ البشرى فى الريف إلى مضخة

تصب فى اتجاه واحد، من الريف إلى المدن، إلى حيث مزيد من التكدس والزحام واختناق المرافق، وتجف الأرض وتتصحر ولا تجد من يزرعها.

ثم يتراكم ألوف وملايين الخريجين الذين لا يجدون وظائف تستوعبهم إلى كَمٍّ هائلٍ من البطالة يخلق مشكلة من حيث تصور الحاكم أنه يؤجل المشكلة، وتدور الحلقة المفرغة لتضيق شيئًا فشيئًا على عنق النظام القائم حتى تسقطه.. ولهذا يخطط الرفاق اليساريون ويرسمون حيث يعتقدون واثقين أنهم الورثة الشرعيون للخراب والفقر والأزمات، فإن لم توجد أزمات فإنهم يخلقونها، وإنْ لم يكن هناك خراب فإنهم يصنعونه، فهو بيئتهم الطبيعية التى لا يعيشون إلا فيها.

ولهذا يتنادى اليساريون وتتجاوب مقالاتهم وتتعالى صرخاتهم إذا مس أحد هذا الثالوث المقدس.. مجانية التعليم، والخمسين فى المائة عمال وفلاحين، والوظيفة المقدسة لكل خريج.. لأنهم يعلمون أنها القنابل الموقوتة التى تركها عبد الناصر بعد موته لتفرخ التناقضات والأزمات والمشاكل حتى تأتى على البنيان المتهالك من قواعده.

ولقد كان عبد الناصر يعلم حينما زرع هذه الوعود فى التربة المصرية أن الوفاء بها سيكون مستحيلاً، كما أن الرجوع عنها سيكون مستحيلاً.. وأنها ستظل الشرخ القاتل الذى يقصم ظهر

كل من يأتى بعده.

ولكن مسز تاتشر باعت القطاع العام فى المزاد فى إنجلترا، ووقفت فى وجه عمال مناجم الفحم المطرودين، وأعلنت أنها عائدة لتستأصل الاشتراكية من بلادها وعادت تحملها إرادة الأغلبية إلى كرسيها من جديد.

وما ظن اليسار أنه مستحيل لم يعد مستحيلاً.. ولم يعد اليسار بالقوة التى كان عليها فى الخمسينيات والستينيات.

لقد تحول التيار السياسى فى العالم كله وسقط الفكر الماركسى حتى فى بلاده، وتراجع اليسار فى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا، وفقد أكثر مقاعده فى هذه الدول.. وفقد سمعته وفقد شرفه.. وفى مصر سقط رئيس حزب التجمع فى دائرته الانتخابية، ولم ينجح أحد من الحزب الناصرى ولا من حزب التجمع، ولم يبق عاملاً نشطًا فى ساحة اليسار إلا أمثال الألوية الحمراء وأخواتها من خلايا التخريب والإرهاب والخطف والسيارات الملغومة.

واليسار المصرى مجرد أعمدة فى الصحف وشعارات ولافتات وصيحات ولكن فى لحظة الامتحان لا يجد له رصيدًا شعبيًّا، ولا سندًا جماهيريًّا.

وهو مجرد بقية مما ترك عبد الناصر.

وقد جاء وقت المواجهة ولا مهرب.. مواجهة الفكر بالفكر،

ومواجهة الأكاذيب بالإحصاءات والأرقام الدقيقة، ومواجهة التزييف بالوقائع وبالتاريخ الثابت.

وقد عجبت لزميل مثل أحمد بهاء الدين يقول: إن عبد الناصر ليس مسئولا عن الإهمال والتسيب والفساد والتدمير الذى وصل بنا إلى ما نحن فيه.. وهو أول من يعلم أن الفساد ما وُلد إلا فى حكم عبد الناصر الذى غابت فيه الحرية، وقُطعت الألسن، وقصفت الأقلام، وسادت مبادئ النفاق والانتهازية، وحكمت مراكز القوى، وانطلقت عصابة القتل تعيث فى الأرض فسادًا.. وما وُلد الإرهاب الذى نعانى منه اليوم إلا فى زنازين التعذيب فى السجن الحربى بأمر وتوجيه وإشراف من عبد الناصر.

وعجبت له يتكلم عن قامة عبد الناصر الطويلة وحجمه التاريخى، وهو القائل إن عبد الناصر جعل مصر كبيرة والمصريين صغارًا.

وفى الحق أنه ما جعلها كبيرة، وإنما هو نفخ الأبواق وَقَرْعُ الطبول ودوى الأجهزة وهتاف المرتزقة الذى أفاق منه الكل فجأة على هزيمة منكرة، وأرض محتلة، ومصر صغيرة أصغر مما ورثها عبد الناصر بمقدار سيناء، وبمقدار حجم السودان كله.

ثم من قبيل التعريض بالموجود يقول: إن عبد الناصر ترك الخزينة مدينة بأقل من ألف مليون، واليوم هى مدينة بأربعين ألف مليون.. والظاهر أنه نسى أصول الجمع والطرح، ونسى جدول

الضرب أو تناسى أين أنفقت الأربعين ألف مليون.. وكيف أنفقت لإنشاء بنية أساسية تركها عبد الناصر منهارة مخربة.. أنفقت ليجد تليفونًا يتكلم فيه، ومواصلة يركبها، وماء يشربه، ومدنًا سكنية يجد فيها الشباب غرفة يأوى إليها، وكهرباء يقرأ عليها ومصادر طاقة، وأمنًا غذائيًّا يغطى احتياجات عشرين مليونًا زادوا فى التعداد منذ رحيل رجله، وكل هذا بأسعار الثمانينات وبالدولار الحاضر.

ثم يمن علينا بالسد العالى الذى أقامه صاحبه، وأولى به أن يتلفت حوله ليجد أن نفق المترو وحده بأعماله الخرسانية مضافًا إليه عشرات الكبارى والأنفاق والمصانع والسنترالات ومحطات توليد الكهرباء والموانى الجديدة والمدن السكنية والوادى الجديد وتوسيع القنال وغزو الصحارى والتنقيب عن البترول.. الخ الخ.. هى أضعاف السد العالى من ناحية الحجم الإنشائى ومن ناحية الأثر.. ومع ذلك فقد تمت جميعها دون أن نرى حسنى مبارك يقتل أحدًا أو يسجن بريئًا أو يعذب مخالفًا له فى الرأى..

ونذكره بالإنجازات الحافلة التى أنجزها صاحبه وكيف انتهت كلها إلى الإحباط وفى حياته..

الإنجليز الذين أخرجهم من القنال دخل مكانهم اليهود.
والقناة التى أممها ردمها.
والوحدة التى أعلنها مع سوريا رفضتها سوريا.

والاشتراكية التى تصورها راية قومية تجمع العرب تحولت إلى معركة تفرقهم.

ومجانية التعليم انتهت إلى حال لا هو مجانية ولا هو تعليم.

والإصلاح الزراعى هبط بالزراعة حتى جاء اليوم الذى أصبح فيه القمح يأتينا تبرعًا من إخوة لنا فى السعودية خضروا الصحارى وزرعوها بدون اشتراكية وبدون شعارات.

وأخيرًا انتهى الرجل وانتهت سياسته إلى الهزيمة والخراب الاقتصادى، وجميع أفكاره أخذت حظها من الامتحان وسقطت.. وكان على السادات أن يبدأ من الصفر، وكان على حسنى مبارك أن يبدأ من مشاكل لا تنتهى.

فماذا يحاول الزميل إحياءه؟ وما هى التقدمية والعلمانية التى يكلمنا عنها كل يوم؟! إن مدلول الكلمة الحرفى والصريح هو نظام لا يؤمن إلا بهذا العالم، ولا يعمل إلا من أجله، ويرى فى حكاية الآخرة والله والحساب والعقاب أنها غيبيات ومسائل غير مطروحة لا تخص سوى أصحابها ولا تتخطى باب المسجد.. أما فى الشارع وفى المجتمع فلا حكم إلا للقانون الوضعى الذى ارتضاه البرلمان، فإذا وافق البرلمان بأغلبية على إباحة الزنى والشذوذ والخمر والقمار والربا فإنها تصبح مشروعة وتكتسب قوة القانون، وإن خالفت الأديان وصادمت الشرائع.. هذه هى علمانية أحمد بهاء الدين!!

والأمثلة الموجودة والحاضرة لهذه العلمانية فى البلاد الإسلامية والعربية هى لبنان واليمن الجنوبى وبنجلاديش ونظام أتاتورك، وجميعها أمثلة متفاوتة للأزمات الاقتصادية والديون والتخلف والتبعية وفقدان الهوية.

بل إن الكعبة التى يتجه إليها العلمانيون ويتلقون منها وحيهم وإلهامهم نرى فيها العمال الكادحين يقفون فى طوابير ليشتروا الكرنب بالبطاقة، فى حين أن أعضاء الحزب الشيوعى يأكلون الكافيار ويركبون عربات الزيم الفاخرة.. ونقرأ عن برجنيف أنه كان يمتلك جراجًا به أكثر من عشرين عربة فاخرة من أغلى وأفخر أنواع الرولز رويس والمرسيدس والليموزين.

ذلك ما يقوله دفتر أحوال هؤلاء العلمانيين برواياتهم وتوقيعهم، وبدون تشنيع، ومن أجل هذا سقط اليسار فى العالم كله، وتراجع جورباتشوف عن افكار لينين وستالين وبرجنيف وضرب بها عرض الحائط.. كما تراجعت الصين وانتكست الأحزاب الشيوعية الأوربية على رءوسها.. ولم يبق من دراويش الماركسية إلا اليسار المصرى يرفع رايات عتيقة بالية انتهت موضتها.. ويحلم بأمجاد ولت.

ويقول لنا الزميل أحمد بهاء الدين: موتوا بغيظكم.. وما مات بغيظه إلا صاحبه، بل لقد مات بحسرته يغص بهزيمة منكرة وإحباط لم يشهده زعيم قبله.

والزملاء الرفاق الذين يلبسون قميص عبد الناصر ينسون أن القميص مهلهل أدركه البلى، وأنه دخل فى تركة ماضٍ انتهى وأصبح مخلفات.. وأن العصر بمشكلاته ومتغيراته تجاوز عبد الناصر وفكر عبد الناصر، وأن المشاكل التى استجدت تحتاج إلى فكر جديد.. وأن نقودٍ أهل الكهف التى يدورون بها فى الأسواق لن تشترى لهم شيئًا..

افتحوا النوافذ يا رفاق.. واستنشقوا الهواء. فنحن على بواب التسعينيات.

عمتم صباحًا.

الحب.. المبرر الجاهز لكل شيء

ما تكاد تمس بأصابعك قنوات التلفزيون، وما تكاد تمر بأناملك على محطات الراديو حتى ينهمر على أذنيك سيل من أغانى الحب والغرام والوجد والهيام بجميع ما يخطر على بالك من لغات.. تأوهات فرنسية، وأخرى روسية، وثالثة تركية ورابعة عربية، وخامسة إيطالية، وسادسة ألمانية إلى آخر ما فى المعجم من لغات.

ويكاد العصر يبدو وكأنه عصر الحب.. فالصفة المشتركة لكل وسائل الإعلام هى التسبيح والتقديس والترويج والتغنى بهذا الحب، ورفعه إلى مصاف المعبودات، ورفع جسم الأنثى إلى مرتبة الأصنام التى يحرق لها بخور الشعراء وعطور المغنين وابتهالات الملحنين.. ولا مانع من الاستفادة بجسم الأنثى العارى فى الإعلانات لترويج الصابون وشفرات الحلاقة والمشروبات الغازية وأنواع البسكوت والشبس والبنبون، فهذا ولا شك سوف يضفى الحيوية على الشبس والبسكوت والبنبون من باب الشىء بالشىء يُذْكَر.

والعقيدة التى تسقيها السينما والتلفزيون والأغانى لكل شاب

ليل نهار هى.. افعل أى شىء وقل أنا أحبها.. افعلى أى شىء وقولى.. أحبه.. فهذا سوف يضفى القداسة والطهارة على أى فعل، فالحب هو القيمة العليا التى يضحى فى سبيلها بكل شىء والهدف الأسمى الذى من أجله نعيش.. والأبطال الحقيقيون فى نظر الإعلام هم قيس وليلى وروميو وجولييت.

والشعراء غرقى فى بحر الحب..

والفن مستنقع حب..

حتى ليخيل للمشاهد والقارئ أن الفنانين كلهم لا يأكلون إلا الحب، ولا يشربون إلا الحب، ولا يتنفسون إلا الحب.

والعقول سكرى على هذه الكلمات الضبابية التى تتبخر كالكحول..

والأغانى تتطاير كالعطور، والبالونات الملونة..

محفل عظيم وكرنفال وسامر ومولد وسوبر ماركت اسمه الحب.. مفتوح بطول الدنيا وعرضها.

والشعراء ينصبون الزينات وينادون على البضاعة

فالعيون مثل بحيرة من عسل النحل، بل مثل منجم فيروز.. بل هى واحة من السكينة والأمن.. بل هى الحضن لليتيم والراحة للمسافر حيث يريح رأسه على شاطئ المرمر والبلّور المذاب، ويغفو كطفل ويبحر فى محيط اللانهاية.. إلخ.. إلخ.

ولا ينتهى فى الحب كلام، ولا تخلو حياة الشباب من لحظات محمومة يصدقون فيها أى شىء.

وما أكثر الأكاذيب الجميلة!

ولكن على الجانب الآخر الواقعى من العالم تعلو أصوات الكراهية، ويسود الإرهاب، وتنفجر السيارات الملغومة، ويموت الأطفال، وتغتصب الشعوب، وتتكدس الأسلحة، وتهرب أطنان المخدرات، وتخطف الطائرات.

وشعراء الحب لا يأكلون الحب ولا يشربون الحب وإنما يتعيشون من الحرفة، ويتكسبون من الصناعة، ويتقاضون أجورًا على دورهم من المنتج والناشر والجمهور،والاعتبار الأول عندهم للمصالح وللمكانة وللجاه عند الناس،وهم أقل الناس انخداعًا بالحب فى حياتهم الخاصة.

والمرأة برغم ما تبدى من عواطف فإنها لحظة الزواج تطرح جميع عواطفها خلفها وتبحث بعقلها فتسأل عن الدخل والثروة، وتنظر بمنظار المصلحة والراحة المادية والراحة فى العِشْرة.. وهى قد تستدرج الرجل بالعواطف وبكلمات الحب المعسولة حتى يعمى عن عيوبها وسلبياتها، ولكنها لا تسمح لنفسها أبدًا بأن تستدرج من عواطفها.

والمرأة واقعية بعكس ما يشاع عنها من عاطفية.. وهى التى أشاعت عن نفسها هذه العاطفية للتعمية والتضليل.

أما الرجل فهو «المدب» الكبير، وهو الطرف الخيالى والحالم والمثالى.. وما أسهل ما تثير المرأة عواطفه وتستدرجه إلى مهلكه.

والحب ليس قوة يفتخر بها صاحبها.. بل هو ضعف أولى به الستر.

والحب لا يصلح كدليل لانتقاء شريكة العمر، فالحب تشعله النظرة واللفتة، وتحركه الشهوة، والقلب يأسره المنظر، ويستعبده المظهر، فيعميه عن سوء المخبر وخبث الجوهر.. وللجمال سلطان غلاب، وللهوى سُعار يشوش على العقل ويسد مسالك التفكير فلا يعود الشاب يرى إلا ما يأمره شيطان هواه بأن يراه.

وذلك هو الحب الذى يجعل صاحبه عبدًا.

وزواج حافزه هذا الحب لن يتجاوز عمره شهر العسل، فما تكاد الرغبة تشبع حتى يصحو العقل على سوء الاختيار واستحالة العشرة، وما يلبث الحب أن يفتر، ثم ينكر كل طرف ما يراه من فتور الطرف الآخر، فينقلب التفاهم إلى تشاحن، والانسجام إلى شجار، وتظهر العيوب، وتتسع الفجوة، ثم ينقلب الحب كراهية والصداقة عداوة والجنة جحيمًا، ثم يتحول ما تبقى من العمر إلى محاولات فض اشتباك.

والقلب متقلب (وهكذا اسمه) ولهذا لا يؤتمن ولا يعتمد عليه فى انتقاء شريكة العمر.. وجمال الوجه لا يدوم، ومقاسات الجسم ما أسرع ما تتغير بعد السنة الأولى من الزواج، فتتحول الغزالة

إلى بقرة، ونجمة الشاشة إلى مرضعة قلاوون.

ولفظ «الحب» جاء فى القرآن فى موضع الذم فى سورة يوسف الآية ٣٠:
﴿وقَالَ نِسْوَةٌ فى المدِينة امرأةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فتاها عن نفْسِهِ قد شَغَفَهَا حُبًّا إنَّا لَنَرَاهَا فى ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.
فهو عند الله ضلال.

بل إن يوسف ليقول إن السجن أحب إليه من ذلك الذى يدعونه إليه:
﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف - ٣٣).

ثم هو يسميه كيدًا:
﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ (يوسف - ٣٣).

فكلام العشق كيد من كيد النساء.. والصبابة جاهلية..

ذلك هدى الأنبياء..

ولكن التلفزيون والسينما والإذاعة والأغانى والمجلات تقول لنا كلامًا آخر، والشباب معذور، فهو يرى البوصلة وعلامات الطريق تقوده إلى سبل أخرى، وهو يرى نجومًا يحبهم ويحترمهم يتكلمون لغة أخرى.

ولا أدرى لماذا لا يخرج المؤلفون من هذه الزنزانة الفكرية المحدودة، ومن هذا السرير المتر ونصف ليحلقوا بالحب فى موضوعات أشمل وأكبر وأعمق؟

لماذا لا يتخذون من الكون كله موضوعًا لتأملهم؟ ومن العلم هدفًا لحبهم؟

إن أدب العلم ومسلسلات العلم تملأ تليفزيونات أوربا وأمريكا، والسرد الروائى الجميل للتاريخ وأحداث الحروب نشاهدها ونستفيد منها فى نادى السينما.. وفى التلفزيون الإنجليزى يتخذون من حياة العلماء والمفكرين والمخترعين مادة لمسلسلاتهم، ونحن مازلنا نبحث فى تاريخ بمبة كشر وزوبة الكلوباتية وشفيقة القبطية وبديعة مصابنى عن قصص الغرام والهيام وليالى الصبابة.

إلى متى نعذب المشاهدين بهذا الإملال المستمر بحكاية واحدة مكررة ومعادة، ولا نكتفى بذلك، بل نعاود إذاعة وعرض أفلامنا القديمة بكل سذاجتها وكأنها كنوز وتراث ومعجزات أدبية؟!

وهل الحب بحاجة إلى كل تلك الدعاية والبروباجندا والسامر والمحفل المعقود ليل نهار.. وهل شهواتنا بحاجة إلى كل طبول الشعراء لتستحثها وتساعدها؟

إن الحب يا سادة غريزة مغروسة فينا ولها من قوتها الذاتية ما يكفيها لبلوغ مرادها.. وعمار الأرض مضمون بما لهذه الغريزة من

قوة دافعة إلى طلب التناسل والتكاثر.. وهى ليست فى حاجة إلى مساعدة الشعراء والمطربين.

وبيوت اللهو ليست فى حاجة إلى أفيشات وإلى دعاية من أقلام الفنانين، فالأقدام تسعى إليها وتعرف مكانها جيدًا، وهى ستظل رائجة بإذن الله إلى أن تقوم الساعة، ولا خوف على سوقها، وإنما المطلوب بشدة هو دعاية أخرى مضادة لإيقاظ العقل الغافل، وتحريك الضمير النائم، وبعث القيم المطمورة تحت الركام.

والفن الحقيقى هو تلك الدعوة التى تحرك الضمير، وتوقظ العقل، وتحفز القيم لتعاود نشاطها وفعلها وتأثيرها فى الحياة.

والإعلام المطلوب هو الإعلام الذى يفتح قنواته لهذا الفن الراقى.

والشعر الحق هو الشعر الذى يتغنى بهذا النوع الآخر من الحب.. حب الخير والعدل والحق والفضيلة.

ولا أفهم أن تتبنى أجهزة الدولة الرسمية تلك الهلاوس العاطفية، فهى كفيلة بالترويج لنفسها بنفسها، ولا تحتاج إلى جهاز لترويجها.. وإنما واجب الدولة الأول أن تتبنى وتشجع وتروج الفنون الإيجابية الجادة التى تبنى المجتمع وترسخ قيمه.

ولا خوف على زبون اللهو، فهو لن يضل طريقه إلى اللهو أبدًا، وهو يعرف دائمًا أين يجده.

وإنما الخوف أن يصبح اللهو مقررًا فى أجهزة الإعلام فى حصص يومية يتجرعها الكل بانتظام وكأنها وجبات ثقافية.

وتلك الهلاوس العاطفية ليست ترفيهًا ولا تسلية، فقد جاوزت الترفيه والتسلية إلى الإثارة والمراودة والدغدغة الحسية.. والانحدار الفنى الذى شمل العالم كله لم يدع شيئًا، حتى فن الباليه الذى كان فنًا رفيعًا تحول هو الآخر فى الباليه المودرن إلى شقلبات وإيماءات جنسية فاضحة.

وما نراه فى ملاهى أوربا وأمريكا ليس بالشىء الذى يُقْتَدَى به.. والأولى أن نقلد هؤلاء الناس فى علومهم ومخترعاتهم وصناعاتهم، ونأخذ عنهم تكنولوچيا الفضاء والليزر والذرة وعلوم الهندسة الوراثية، وليس تأوهات مايكل جاكسون وتشنجات الديسكو.

وما أطلبه صعب، فالجمهور تعود على استحلاب بونبون الحب ليل نهار، والبضاعة الحاضرة معظمها من هذا الصنف الهابط.. وأنا لا أقول: نصدم الناس فى مألوفاتهم.. وإنما أقول نخرجهم من هذه المألوفات بالتدريج وعلى مهل.. ونقلل من الهلوسة بعض الشىء وخطوة خطوة.. ونشجع المحاولات الجادة، ونقدم النماذج الرفيعة، ونأخذ الناس من أيديهم برفق نحو فنون أجمل وأرفع.

ولا يهم أن يطول الإصلاح إلى سنين.
ولكن المهم أن نبدأ ومِنَ الآن.

الذين يزرعون الخوف

التيار العلمانى فى مصر التقط حادثة الشباب المتهوس الذى اعتدى بالجنازير والمطاوى على الحفل الراقص بالجامعة وملأ الجرائد صراخًا وعويلاً، وحاول البعض أن يجعل من الحادث الفردى المحدود قضية، ثم أزمة عامة عن اضطهاد الدين للفن وعدوان الدين على الفن، وانعقدت ندوات، وقام خطباء يتحدثو ن عن محنة الفن ومستقبل الفن فى مواجهة القهر، وعن رجوعنا القهقرى إلى الوراء إلى العصور الوسطى المظلمة، وخرجت مانشتات مثل مارشالات الرعب.. وجنرالات الحلال والحرام.

وتجاوز الهدف مجرد التعليق على خبر إلى التخويف من كل ما هو إسلامى، وإلى التلويح بالعصر الخومينى القادم، وإلى الفاشية الدينية التى تتربص بمصر الدوائر.

ولم يعد المتهم هو بضعة نفر من المراهقين، وإنما الإسلام نفسه والتيار الإسلامى كله، ثم الأزهر، والمؤسسة الدينية، والصحوة الدينية، والبرامج الدينية، الكل أصبح فى قفص الاتهام.

وانبرت أقلام الدعاة الأفاضل، وطلع المشايخ بمقالاتهم

يدفعون عن الإسلام التهمة، ويدللون بالقرآن وبالحديث الصحيح وبالثابت فى موضوع السماع على براءة الدين من هذا التعصب.. وما كانوا بحاجة إلى كل هذا.. فالشيخ صبح. والشيخ على محمود، وغيرهما كانوا يغنون القصائد على التخت إلى عهد قريب، وأم كلثوم تعلمت الأداء على يد الشيخ أبى العلا محمد، شيخ الملحنين فى زمانه، وكان جوابها لكل من يسألها عن سر نطقها السليم ونبراتها الجميلة فى الأداء: إنه القرآن، وحفظها للقرآن الكريم من الصغر.

وحرمة الموسيقى غير واردة فى تراثنا الدينى.

والفن لم يكن ضد الدين فى أى مرحلة من مراحل التاريخ المصرى القديم والحديث.. وإنما كان توءما وشقيقًا ومصاحبًا له طول الوقت، ومن خمسة آلاف سنة بنى الفنانون الأهرامات والمعابد، ونقشوا جدرانها، وزينوا سقوفها، وعازفة الهارب مرسومة على جدران مقابر الملوك.

وفى العصر الإسلامى كان الفنان هو الذى بنى القباب والمآذن والمنابر والمشربيات.. والمشكاة والمكحلة وأوانى العطر والزهريات الجميلة تحكى لنا عن فن الخزَّاف الإسلامى وإبداعه، ولوحات السجاد الكاشانى الفاخر، وفنون الأوبمة.. وكلمة العود دخلت بنصها العربى فى كل اللغات الأجنبية، والموشحات الأندلسية دخلت فى السيمفونيات الأوربية.

إن كل هذا التخويف من الدين تهريج.

وإذا كان الرفاق العلمانيون يريدون أن يقولوا لنا من طرف خفى.. إن ما حدث هو دليل قاطع على أن نظام الحكم العلمانى هو النظام الأمثل لمصر ولأمن مصر.. فإنى سوف أذكرهم بأن لبنان نظامها علمانى، فأين حظها من الأمن والأمان والحرب الأهلية تأكلها من اثنتى عشرة سنة، ولا تدع فيها حجرًا على حجر، واليمن الجنوبى شيوعى علمانى ومع ذلك يعيش حربًا دموية بين الإخوه الماركسيين لا تنتهى.. والحبشة يحكمها منجستو بنظام علمانى، وهى تئن من الجفاف والمجاعة والحرب الأهلية والقتال الدموى بين أبناء الوطن الواحد.

وغبار المقالات لن يحجب الحقيقة.. إن ما حدث جريمة لا تختلف عن جرائم الكلوكلوكس كلان فى أمريكا وأوربا وهى قد اتخذت مثلها من الدين ستارًا، ولكنها لا تمت إلى الدين بسبب. ولكن جذور المشكلة وأسبابها فى المجتمع نفسه وفى شكل الحياة التى أصبحنا نعيشها.

ولن يختلف معى أحد على أن الكثير من أشكال الفن الذى يعرض علينا الآن فى السينما والتليفزيون والمسرح لا يدخل تحت اسم الفن، وإنما هو إهانة للفن، وهو يستفز المشاهد بتفاهته وهزاله.. وبعض أفلام الفيديو المصرية تكاد تدخل فى اختصاص بوليس الآداب، وبعض الأغانى هى كباريه درجة ثالثة.. وبعض

الهزليات المسرحية هى رقص مواخير.. وإسفاف وتهريج وبذاءات.. يمكن أن تشطب عليها الرقابة وتمنعها الدولة، ليس بسبب الدين ولكن بسبب الحياء.

مثل هذه المشاهد مع المعاناة الموجودة ومظاهر الغنَى الفاحش والفقر المدقع يمكن أن تستفز أيَّ شابٍّ مُتهوس وتدفعه إلى الجريمة.

ولم يحدث فى تاريخ مصر أن تحالف عليها هذا الكم من المشاكل التى تأخذ بالخناق.. الجفاف، والديون، والجراد، والتصحر (هجوم الصحراء على الرقعة الخضراء وردمها)، والتآكل (هجوم البحر المالح على الشواطئ وغمرها)، والنحر (هبوط نهر النيل بسبب نحر الماء الخفيف الخالى من الطمى للمنشآت والشط)، وأزمة الطاقة (بسبب هبوط الكهرباء)، وأزمة الغذاء بسبب ضعف الإنتاج.. والانفجار السكانى، ٥٤ مليون فم يأكل ولا يعمل.. والبطالة بسبب عدم استيعاب المشروعات الموجودة للأيدى العاملة.. والدعم الذى يذهب إلى البالوعة.. ومجانية التعليم التى تحولت إلى اللامجانية واللاتعليم.. والإرهاب، والمخدرات، والتطرف، والفتنة الطائفية.. وفوق كل هذا انقسام الصف العربى، وتنامى قوة إسرائيل، وتفاقم عدوانها، وتحولها إلى قوة نووية وحيدة عابثة فى المنطقة.. ثم أسوأ من كل هذا.. انهيار الأخلاق، وفساد الذمم، وضياع القيم، وتفشى الكذب، والغش،

والتزوير والرشوة، والسرقة، وفى مواجهة كل هذا جبهة مثقفة منقسمة بين يمين ويسار، وأحزاب ومهاترات، وأفكار مستوردة، وجدل بيزنطى، وقلة من شباب متهوس تتصور أن الحل هو الثورة والانقلاب، وأن تخلع الجالس على الكرسى وتجلس مكانه.. ولا يوجد حل أكثر سذاجة من هذا، وهو أشبه بحل أزمة المرور بإلغاء الإشارات، وحل مشكلة الظلم بالفوضى.

ومشكلة مصر لا يحلها استبدال شخص بشخص..
والمسألة غير هذا تمامًا.

فالعيب فى المناخ العام وفى مستوى الوعى.. العيب فى الناس صغارهم وكبارهم.. العيب فى التعليم الهابط وما يفرزه من لياقات هابطة وعقليات هابطة.. العيب فى النمط الاستهلاكى من الحياة وما يفرزه من جشع مادى وتهالك وسلوكيات أنانية.. العيب فى روح السلبية والكسل، وعدم المبالاة، وعدم الانتباه.. العيب فى ثقافة التسلية وقتل الوقت، والإعلام الترفيهى، ومسرح الهزل، وصحافة المهاترات، وأغانى الكباريه، ورقص المواخير.

واليسار المصرى وقدامى الماركسيين الذين أصابهم تصلب الشرايين مازالوا واقفين عند شعاراتهم البالية يرددون نفس الموال القديم عن القطاع العام والتأميم وملكية الدولة لوسائل الإنتاج، وصرخاتهم التى تعالت وارتفعت لمجرد التفكير فى بيع فندق سان ستيفانو كشفت عن مدى التخلف العقلى الذى يعيشون

فيه، وكأنهم حفريات چيولوچية متحجرة لكائنات انتهى عصرها.

والظاهر أنهم لا يدركون أن الدنيا تغيرت من حولهم، ولا يعرفون أن البرافدا أصبحت تتكلم بلغة جديدة.. وكذلك صاحبهم ميتران فى فرنسا الذى خلع ثوب الأيديولوچية اليسارية، وأسقط كلمة الاشتراكية من قاموسه، ودخل الانتخابات بشخصه، لكى يستطيع الحصول على صوت الناخب الفرنسى الذى لم يعد يستهويه الدجل الاشتراكى.

لقد سقط اليسار يا سادة، والشيوعية لم تستطع أن تحصل إلا على ستة فى المائة من الأصوات فى الانتخابات الفرنسية الأخيرة، أى أقل من نصف ما حصل عليه لوبن الذى يسمونه فى فرنسا اليمينى القذر.

يا إخوة.. أفيقوا.. لقد تغيرت الدنيا.

وحزب التجمع حينما يضع يده فى يد حزب الوفد ليضرب الحكومة هو لم يضرب الحكومة، بل ضرب نفسه بالضربة القاضية، وأثبت أن مبادئه قابلة للبيع فى سبيل ربح تافه، أو حتى مظنة ربح.

إن أكثر القيادات التى تتصدى لهذه المرحلة التاريخية من حياتنا هى للأسف دون مستوى المسئولية، ودون مستوى المرحلة بكثير.

والتيار الإسلامى برغم انحراف القلة وضياعها فى الشكليات والمظهريات مازال هو الذى يملك القدرة على التنوير والتغيير، لأنه التيار الوحيد الذى يملك التأثير، والوحيد الذى يملك قدرة التغيير من الباطن بإيقاظ الضمائر وتحريك القلوب، وهذا هو المطلوب بالضبط فى هذه المرحلة التاريخية.. ليس الثورة ولا الانقلاب، ولا استبدال الكراسى.. وإنما إيقاظ الضمائر، وتحريك القلوب، والنفخ فى موات القيم لتصبح النفوس غير النفوس، وهذا هو الشرط الوحيد الذى شرطه علينا ربنا ليغيرنا.. أن نتغير من داخلنا.

﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

تغيير ما بالنفس هو الشرط.. وهو أمر باطنى لا يقدر عليه إلا تنوير دينى.. وإشراق عرفانى.

أما اليسار السعيد فله أن يخطب ما شاء من الخطب، ويدبِّج ما شاء من الكتب، ويسود ما شاء من الصحف، فلن يستطيع أن يفعل شيئًا.. فلا أحد يقرأ له أو يستمع إليه أو يصدقه.. وقد أخذ فرصته على مدى عشرين عامًا، وطبق برامجه، وفرض نظرياته، وانتهى بنا إلى هزيمة ٦٧ وإلى الخراب الاقتصادى الذى مازلنا نعيش فيه، وإلى الحلقة المفرغة الموحلة التى نحاول أن نخرج منها.

واليمين البائد عشنا رحلته الطويلة القديمة حتى حريق

القاهرة وشهدنا فشله، وما زلنا نسمعه إلى الآن يتكلم بنفس اللغة، وقد نسى تمامًا أن الزمن تغير، والمشاكل تغيرت، والتناقضات اختلفت، والخريطة السياسية اختلفت، والأكليشيهات القديمة لم تعد تنفع، والمهاترات لم تعد تفيد.

وقد انتظرنا أن يخرج من كنانته بضاعة جديدة وأفكارًا جديدة، فلم يخرج شيئًا، وعادت صحافته إلى الشتم والمهاترات.

ولم يبق إلا التيار الإسلامى.

والإسلام هو الحل، ولكن ليس الإسلام الشكلى، ولا التدين المظهرى، وإنما الإسلام فى حقيقته وجوهره.. إسلام العلم والعمل ومكارم الأخلاق.. إسلام الحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية.. إسلام الفكر والفعل.

إن جاهلية قريش لما اختلفوا على مَنْ يحمل الحجر الأسود ويضعه فى مكانه وأوشكوا على الشجار والقتال ظهر لهم محمد على رأس الطريق.. لم يقولوا جاء ذو اللحية، جاء محمد.. بل قالوا:

جاء الأمين، جاء محمد.. (لأن الأمانة كانت جوهر الموضوع، وكانت هى أساس التفضيل).

وحسنًا أن نقلد النبى ﷺ فى كل شىء، ولكن تقليده فى مظهره وحده لن يفى بالغرض، أما تقليده فى أمانته ومكارم أخلاقه وشهامته وشجاعته وكرمه وحلمه وأبوته وصبره وجلده

وإيمانه، فهى هنا روح المسألة.

والخلاف فى الشكليات خروج بالإسلام عن روحه ومضمونه، كما أن الإغراق فى الغيبيات خروج بالإسلام عن روحه ومضمونه.

والأمل أن تفرز الصحوة الإسلامية قيادات مستنيرة تعيش محنة العصر بمتغيراته، فلا تفرق جماعة المسلمين فى الخلافات الشكلية، ولا تضيع همتهم فى المتاهات الغيبية.

قيادة تمثل الوسط العدل، وتلتقط بحسها المرهف روح العصر التى تتمثل فى انطلاقة العلم واندفاع العقل، وتزاوج بينها وبين القيم الإسلامية الرفيعة، والأخلاق الإسلامية الأصيلة والتوحيد الإسلامى الخالص.

قيادة يصنعها الله على عينه.

وإنه لفاعل، فالله لم يخلق العالم ليتركه سُدًى، ولم يبعث بالديانة الخاتمة ليدعها هملًا.

ولكن علينا أن نقوم بدورنا.. فنغير ما بأنفسنا
علينا أن نحرث أرضنا ونستصلح نفوسنا البور.

ونستطيع أن نفعل الكثير بنفس النظام ولكن بإدارة أحسن، وبأخلاقيات أحسن، وبعمل أكثر، وبحماس أكبر نحو الإتقان والإجادة.

وبرغم عيوبنا فقد استطعنا أن ننهض بعد كبوة عبد الناصر، واستطعنا أن نخرج من هزيمة ٦٧، ومن المرافق المهلهلة والمصانع المعطلة.. وأنشأنا بنية أساسية جديدة من العدم، مدنًا، وموانى، ومصانع، وكبارى، وسنترالات، وأنفاقًا، وطرقًا، وأراضى مستصلحة، ومحطات توليد كهرباء، ومستشفيات، ومدارس (حجم من الإنشاءات أكثر من عشرة أضعاف السد العالى فى أقل من عشرين سنة) لكن سرعة التفريخ البشرى والانفجار السكانى يلتهم معظم خيراتها.

وعلينا أن نكون أكثر جدية فى ضبط النسل.

إن الثورة المطلوبة ثورة داخلية.. ثورة كل منا على نفسه.

واستنهاضه لأفضل ما فيه.

وتحريكه لأنبل ما يبطن من إمكانيات.

وفى هذا المجال لا شىء يفعل فعل الدين والإيمان.

الدين الحقيقى، والإيمان الحقيقى الذى لا يضيع فى الشكليات والمظهريات والجدل العقيم.

إن الشباب الذى يجلس على الرصيف السياسى ليفتى بأن لعب الكرة حرام، والجمباز حرام، والموسيقى حرام، وخروج المرأة للعمل حرام، وصوتها عورة، والاختلاط بها إثم، والمشى فى الشارع إفك، وحلق اللحية كفر، وتقبيل راية الوطن شرك، والتطوع فى الجيش خطيئة.

هذا الشباب لا يمثل الإسلام، ولا يمثل آمال بلده، وإنما يمثل على الأكثر أمله فى أن يصبح زعيمًا وأن يكون له حكم وسلطة على رقاب الناس.

وهو ليس أكثر من هامش لتيار عريض مازال سليمًا.

ولا أحد يصبح نابليون لمجرد أنه يحلم بأنه نابليون.

ولا أحد يملك أن يغير التاريخ بهواه، وإنما الله هو الذى يضع هؤلاء الذين يغيرون التاريخ فى مناصبهم للمدة التى يراها وللحكمة التى يعلمها.

والله لن يضع هؤلاء الشباب الصغار فى حكم، ولن يسلمهم سلطة.

والله لا يلعب النرد بالكون كما يقول أينشتين.. وإنما كل شىء عنده يجرى بمقدار.. بنظام، وقانون، وحكمة، وانسجام، وتناسق لانهائى.

وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح.

هل اقترب الطوفان..؟

ما يجرى الآن فى روسيا من إصلاحات ليس إلا عملية تخلٍّ تدريجى عن الماركسية، وعن أفكار خاطئة أعدم فى سبيلها الملايين (خمسة ملايين فلاح باعتراف ستالين نفسه، وذلك فى أيام ستالين وحده).

وعمليات التعرية مستمرة.. ما فعله خروشوف فى تعرية ستالين.. ثم ما فعله بريجنيف فى تعرية خروشوف وما يفعله اليوم جورباتشوف بتعرية برچنيف.. والمسلسل مستمر.

والتنازلات التى قدمها جورباتشوف، والتى حاول بها إقامة الجسور مع أوربا وأمريكا، ومع الجانب الديمقراطى من العالم تنازل فيها الرجل عن أحشاء النظرية.. وما تبقى الآن أشبه بيسار يمينى أو يمين يسارى.. نوع من المحاولة للوصول إلى وسط معتدل، أو نوع من المصالحة لا يعجب الجانب المتشدد المحافظ من الماركسيين.

ويقول هؤلاء إن استمرار هذه التنازلات سوف يؤدى

بالأحزاب الشيوعية إلى أن تفقد رخصة وجودها ومبرر ثوريتها باتخاذ هذا الوسط المائع بين اليمين واليسار وفى النهاية سوف تفقد هويتها ثم لا تكسب فى مقابل هذه التنازلات شيئاً.. لأن هواة الديمقراطية والانفتاح لن يلتمسوهما فى حزب شيوعى، ولا فى زعيم ماركسى مهما حمل من لافتات، ومهما رفع من رايات، وإنما سوف يطلبونها من البر الغربى.

والملاحظة صحيحة، فالتاريخ الأسود للشيوعية فى جميع الأقطار والأمصار كفيل بصرف الأنظار عن هذه الدعاوى.. والتغيير منعكس سلبيا على جميع الأحزاب الشيوعية فى أوربا فهى تفقد شعبيتها وتفقد مقاعدها فى جميع البرلمانات.. وهى تتحرك اليوم بلا فكر وبلا فلسفة وبلا خلفية.

ومنظر الشيوعيين وهم يتسولون شعارات الانفتاح والديمقراطية والحرية الدينية ويرفعون لافتات الاعتدال بحثا عن أرض جديدة يقفون عليها بعد الخسف الأرضى الذى أصاب أفكارهم.. هو منظر مأسوى.. والراية الحمراء التى أصبحت الآن راية بمبية، والمطرقة والسندان وهما ينـزلان على رأس ماركس وأنجلز وليس على مخ الرأسمالية الغربية.. أشبه بلوحة كاريكاتورية.

والشيوعية كفكر الآن انتهت.. ولم يبق منها إلا قوة عسكرية تمارس عملها كدولة كبرى إمبريالية، وليس كفكر أو فلسفة أو

دعوة (والمثال أفغانستان).

ولم يبق للدول الصغرى التى تدور فى الفلك الاشتراكى ولا للأحزاب الأوربية الشيوعية الصغيرة إلا دور العميل.

والفعل الذى تبقى لليسار فى العالم هو إثارة الاضطرابات، وتمويل الانقلابات، ونشر الفتن، ودفع عجلة الإرهاب فى كل مكان دون ما فكر أو فلسفة.. والمشهد تاريخيًّا.. هو مشهد غروب كامل للفكر الماركسى.. بعده ليل دامس حالك بإذن الله.

ومما يستوقف النظر أن نقرأ لجورباتشوف منذ شهور خطبة فى طشقند (٥٠ مليون مسلم) يقول فيها إنه لابد من تصعيد الحملة لنشر المبادئ الإلحادية.. ثم نراه منذ أسابيع يدعو رجال دين لحضور مؤتمر المائدة المستديرة فى موسكو..

والتحول كبير.. أكبر من مائة وثمانين درجة.. من النقيض إلى النقيض.. منتهى سعة الصدر.. ومرونة مذهلة..

هل نحن أمام استراتيجية جديدة أم تكتيك أم ذكاء أم قناعة فلسفية؟! ربما كل هذه الأشياء..

ولكن ما حدث كان لابد أن يحدث وجورباتشوف لم يخرج من تحت قبعته أرنبًا، ولم يلعب لعبة حُواة.. وإنما خريطة الواقع هى التى تغيرت، والمسرح السياسى تغير.. والاقتصاد الاشتراكى الذى انهزم بالضربة القاضية أمام الاقتصاد الغربى، والإنتاج

الاشتراكى الذى تخلف وراء الإنتاج الرأسمالى، والرأى العام الداخلى الرافض لسياسة القهر، والذى تعاظم فى الدول الشرقية وأصوات رجال أمثال زخاروف التى ارتفعت لتصل إلى الشاطئ الآخر من العالم.. كل هذا كان وراء هذا التحول.. وكان لابد من تغيير قبل أن تتشقق الأرض وتحدث هزة زلزالية لا تحتملها نظم أصابتها الشيخوخة المبكرة وتصلب الشرايين.

وما فعله جورباتشوف كان عملية إنقاذ وإسعاف عاجل، فقد أسرع ليلتقى بالعاصفة فى منتصف الطريق، ضاربًا عرض الحائط بجميع الفلسفات والنظريات. فقد أدرك الرجل عجز اللغة الماركسية عن التخاطب المفهوم مع العالم، وعجز الأبجدية اللينينية عن الحياة فى عصرنا.. فالعمال اليوم غير العمال.. والفلاحون غير الفلاحين.. والمشاكل غير المشاكل.. والتناقضات غير التناقضات التى تحكى عنها كتب المراجع والمتون التى تعود أن يرجع إليها الشيوعيون التقليديون... والعالم اليوم غير عالم ماركس وأنجلز، والاستمرار فى تطبيق كلام ماركس وأنجلز على عالم اليوم هو تخلف عقلى.

والصراعات اليوم تجرى على محاور جديدة وبانطلاقات مختلفة وبدوافع متعددة ومتشابكة، ولم يعد من الممكن تبسيط كل شىء إلى أنه معركة بين عمال وأصحاب رءوس أموال أو بين فلاحين وإقطاعيين.

انتهت الأكليشيهات القديمة وتغير المسرح.

وكمثال فى بلادنا.. لو جرى التأميم على كل ما تبقى من قطاع خاص، ولو نزعت جميع رءوس الأموال الخاصة ووزعت بالتساوى على الخمسين مليون مواطن فلن يثمر هذا التوزيع إلا المساواة فى فقر عام دونما حل لأزمات الإسكان والصرف الصحى والطرق والكهرباء والطاقة والتأمين الصحى والتعليم، وهى أزمات فى حاجة إلى مليارات ومليارات، فوق المائة مليار.. ولا حل لها سوى العلم والعمل والسهر والإنتاج، وإلى تدفق الاستثمارات، وإلى النهضة بالسياحة، وإلى شق الأنهار، وتفجير الآبار، واستصلاح الصحارى واستخراج الثروات المعدنية، وإلى أبحاث ومختبرات، وجميعها فى حاجة إلى رءوس أموال، فكيف نبدأ بالعدوان على رءوس الأموال؟! إن الصيغة الماركسية لم تعد تصلح.

إن العلم هو الثورة الجديدة التى تستطيع اليوم أن تصنع جبال الزبد وأهرامات القمح وأنهار العسل واللبن وليس الانقلابات الشيوعية.

ورايات المطرقة والسندان لم تستطع أن تفعل شيئًا لدول أمريكا اللاتينية الفقيرة، ولا لأنجولا، ولا لموزمبيق، ولا لكوبا، ولا للحبشة التى تموت جوعًا.

وإذا أخذنا منطقتنا كمثال وما يجرى فيها من صراع وحرب

شبه عالمية فى الخليج، وتجارب لكافة الأسلحة الشرقية والغربية.. هل يرى القارئ فيما يجرى صراعا بين الكادحين والشغيلة وبين رأس المال المستغل؟ هل يرى فيما يجرى صراعًا طبقيًّا؟ أم أننا أمام عوامل جديدة متشابكة متعددة.. عنصرية وعقائدية وتوسعية وصهيونية؟ وبرغم اشتباك الأسلحة الأمريكية والروسية على المسرح، وتورط قوى الشرق والغرب فى أوحال الخليج فإنَّ ما نراه ليس صراع يمين ويسار، ولا تناقضًا بين فلاحين وإقطاع.

وما يجرى فى لبنان لن يصلحه حزب جنبلاط الاشتراكى.

إننا أمام لون جديد من الفتن.. لون معقد متشابك تشترك فيه مئات الأيدى الظاهرة والخفية وتتداخل فيه مئات العوامل وربما كان الفقر والغنى آخر تلك العوامل وليس أولها.. ألم تكن لبنان أكثر الدول رخاء، وأكثرها ترفًا وأكثرها وفرة؟ فلمَ حدث ماحدث؟؟

وبرغم كثرة الضباب وكثرة الأيدى التى تشعل النار فى المنطقة فإن الضباب لن يطول تراكمه.. وسوف ينقشع أخيرًا ويتبلور فى صراع إسرائيلى عربى، برغم محاولة جميع الأطراف تجنب هذا الشكل من الصراع.. وبرغم محاولة إسرائيل أن تغسل يديها مما يحدث وبرغم محاولة الكل تمييع المواجهة وتأجيلها فإنها قادمة..

فإسرائيل هى التى أدخلت الإرهاب إلى المنطقة .. وهى التى

زرعت أسبابه وهى التى تسهر على تنميته وتكاثره.. وهى التى زرعت أسباب التمزق العربى الموجود، وهى التى تسهر على دفع التمزق إلى غايته.. وهى ترفع راية السلام والاستقرار، ولكنها ضد كل نوع من الوحدة والتصالح والتفاهم والاستقرار.

وقد أدى وجودها المستفز وسياستها التوسعية وضربها المدن والقرى بالقنابل وإحراقها للمنازل إلى استقطاب دينى يتنامى باستمرار.. فرأينا التيارات الإسلامية على الجانب الآخر تنمو بدرجات متفاوتة من التطرف والاعتدال، وهو رد طبيعى ودفاع فطرى عن النفس ضد قوة صهيونية تغرس مخالبها فى المنطقة، وتغوص فى لحمها شيئا فشيئا.

وغدًا سوف نرى استقطابًا عقائديًّا دينيًّا لا مكان فيه ولا مستقبل ولا فعل لليسار التقليدى، ولا دور للأحزاب الشيوعية، فالتناقض القادم لن يكون تناقضًا طبقيًّا بين الفقراء والأغنياء، وإنما تناقض عقائدى بين الكتلة الصهيونية والكتلة الإسلامية.

ولو أنصفت الأحزاب الشيوعية الموجودة لحلت نفسها من اليوم واستراحت، فالمستقبل القريب ليس مستقبلها ولا دور لها فيه.. وإنما المعركة ستكون بين حركة عربية إسلامية متنامية وبين إسرائيل، والصراع القادم دينى عقائدى قلبًا وقالبًا.

وما نجحت فيه إسرائيل منذ أربعين عامًا فى إلهاء المنطقة

وإغراقها بالحروب الجانبية والموجات الإرهابية والفتن والخلافات لن يستمر إلى الأبد.

والقنابل الذرية الإسرائيلية التى تخوفنا بها إسرائيل هى أسلحة غير قابلة للاستعمال لأن آثارها إذا ألقيت سوف ترتد وبالا على إسرائيل نفسها فى أقل من ساعات.. فهى مجرد إرهاب وتخويف ساذج لن يخاف منه أحد.

ولن يقبل العالم بعد حادث تشرنوبل أى تلوث للبيئة أو أى لعب للصغار يجر رجل الكبار.. فالصراع العربى الإسرائيلى سيظل صراعًا محليًّا فى فنجان الشرق الأوسط، وسيظل مواجهة محدودة بالأسلحة التقليدية، وأى مقامرة من إسرائيل لتوسيع نطاقه إلى أبعاد عالمية ستكون فيه نهاية إسرائيل ذاتها.

وإلى الآن مازالت إسرائيل بمنأى عن هذا المصير، مستترة وراء ما تمارسه من مكر وتآمر، متخفية وراء دعاوى السلام والأمن والاستقرار، فى حين أن مخالبها تعمل ليل نهار فى تمزيق المنطقة.. ولكن إلى متى..؟

إلى ما تبقى من عمر الأسد..

وإلى ما تبقى من حياة القذافى..

ربما شهور.. وربما سنوات قليلة.. هى مجرد ثوان فى عمر التاريخ.

إن المستقبل مرجل فوار من الاحتمالات.. والأيام القادمة حبلى بالمفاجآت، والمكر الصهيونى والمكر الأمريكى ليس هو المكر الوحيد الذى يشكل التاريخ، ولكن الله أسرع من الكل مكرا..

﴿ويمكرون ويمكرُ الله، والله خير الماكرين﴾ (٣٠ - الأنفال).
﴿إنهم يكيدون كيدًا، وأكيد كيدًا﴾ (١٥ - ١٦ الطارق)

والإمهال هو سُنة الله التى لا تتخلف فى التعامل مع المجرمين، فهو يمد لهم فى الحبل حتى يأمنوا ثم يشنقهم بنفس الحبل الذى يجدلونه لشنق الآخرين.. واقرءوا معى التاريخ.

ماذا بقى من زحف التتار؟ وماذا بقى من الغزو الصليبى؟ وماذا بقى من الإمبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس؟ وماذا بقى من فتوحات نابليون.. ومن غزوات هتلر؟

إن هى إلا طرفة عين بالنسبة للزمن اللانهائى ثم ينقلب العالون أسفلين والأسفلون عالين.

وإذا كانت إسرائيل الآن تجد ظروفًا مواتية لتعلو على أنقاض الخراب الذى اشتمل المنطقة العربية، وغبار المعارك التى تلفها، والخلافات التى تنهكها، فتلك جميعًا أعراض مرحلة.. وسوف تمر المرحلة مثل كل ما مر من مراحل التاريخ.

وإذا كانت إسرائيل تبنى مخططها وآمالها على أنها سوف

تشعل الفتنة الطائفية فى مصر، وسوف تقسمها إلى أسيوط نصرانية، وفيوم إسلامية، وقاهرة شيوعية، فإنها تحلم.. لسبب بسيط، أن المثال اللبنانى المرعب للفتنة الطائفية التى احترق فى نارها المسلم والمسيحى، والتى يراها كل مصرى عيانًا بيانًا سوف تشل أى يد نصرانية أو مسلمة تحاول بوعى أو بجهل أن تشعل الفتنة.ولسبب آخر أنه لا يوجد بمصر جيوش، ولا ميليشيات، وإنما جيش واحد وقوة واحدة مركزية وحكومة واحدة، ولسبب أهم هو تراث إسلامى عريق من المودة يضم فى عباءته الفضفاضة كل الأديان وكل الملل والنحل فى حدب وعطف.. وإننا جميعًا كأغلبية مسلمة نعيش فى وفاق وتسامح مع إخواننا القبط منذ ألف عام، ونعمل بما قاله محمد عليه الصلاة والسلام:

«استوصوا بالقبط خيرًا فإن لكم فيهم رحما وذمة».

وقوله عليه الصلاة والسلام:
«من آذى ذميا فأنا خصيمه يوم القيامة».

فنحن إخوة وأبناء أسرة واحدة، ونشرب من نيل واحد، ونأكل من رغيف واحد، ومع ذلك فإن إسرائيل سوف تحاول، والمخابرات الأمريكية سوف تحاول معها بلا جدوى،وسوف تظل إسرائيل جسما غريبًا مرفوضًا ينمو فى بحر من العداوة العربية.. وتاريخيا لا أمل لهذا الجسم الغريب فى نمو أو استقرار، وهو مقضى عليه بأن ينفصل ويذبل ويسقط.

ولم تكن كامب ديفيد أكثر من هدنة والتقاط أنفاس واختبار للنيات. وإسرائيل بعدوانها المستمر والمتكرر تؤكد كل يوم سوء النيات، وتكشف كل لحظة عن سوء الخبايا.. وهى قد أساءت استخدام الهدنة، واستغلت اليد التى امتدت لها بالمصالحة أسوأ استغلال، وعدوانها واستراتيجيتها منذ كامب ديفيد تنبئ عن عدو حقيقى يضمر خرابًا لا أمانًا، وحربًا لا سلامًا.. وهى مع كل قنبلة تلقيها على لبنان تحفر لنفسها قبرًا ومع كل مستوطنة تزرعها فى الضفة تزرع معها نارًا.

والجسم العربى المريض لن يظل مريضًا.

ولن تنجح الفتن الطائفية فى تحويل مصر إلى لبنان، فالحكومة المركزية فى مصر كفيلة بقطع رءوس الفتنة واستئصال أى ميليشيا من أى لون قبل أن تولد، وقبل أن تنمو لها جذور.. والرعب اللبنانى كفيل بتحصين كل مسلم وكل مسيحى ضد أى تطرف..

ولن تكون تلك الأحداث أكثر من تطعيم يزيدنا حصانة بين وقت وآخر ومع الوقت سوف يتبلور الوعى فى المنطقة، وسوف يعرف الجميع من هو العدو.. وما هى البؤرة الحقيقية التى تنتشر منها السموم وتتوالد فيها الميكروبات.

وإلى أن يكتمل هذا الوعى علينا أن نركز حول هدف واحد، ليس الحرب، وإنما استرداد عافيتنا الاقتصادية، ودفع عجلة

الإنتاج، ومضاعفة الموارد، ومحاولة اختراق الخلافات العربية بحثًا عن أرضية مشتركة للتفاهم، ومحاولة بناء المركب العربي قبل أن يطم الطوفان.

النبوءة

ظاهرة تفرض نفسها اليوم على الساحة - اسمها الإسلام..

إذا أردت أن تكسب فلن تجد راية توصلك إلى غرضك بأسرع من راية الإسلام.. بنوك إسلامية.. شركات مضاربة إسلامية.. شركات توظيف أموال إسلامية.. بيوت أزياء إسلامية.

إذا أردت أن تحارب لن تجد راية تحارب تحتها مثل الراية الإسلامية.. الخومينى يرفع رايات إسلامية.. صدام حسين يرفع رايات إسلامية.. المجاهدون الأفغان يرفعون رايات إسلامية.. حزب الله يرفع رايات إسلامية..

إذا أردت أن تنزل انتخابات فلن تنفعك سوى الشعارات الإسلامية.. حتى أخونا خالد محيى الدين حينما نزل الانتخابات نزلها بصفته الحاج خالد محيى الدين، وليس بصفته الرفيق خالد محيى الدين.. لم يفكر ساعتها فى وسام لينين الذى زينت به روسيا صدره، ولكن فى وسام المعتمر والحاج إلى بيت الله الحرام.

إذا أردت أن تكتب وتطبع وتنشر فموضوعات الساعة هى

الموضوعات الإسلامية، والسيرة المحمدية، والأحاديث القدسية.

إذا أردت أن تدخل إلى التلفزيون من أوسع الأبواب، فالمسلسلات المفضلة هى المسلسلات الإسلامية والمعارك الإسلامية.

إذا أردت أن تؤلف حزبًا جديدًا.. فالنمرة الجديدة الرابحة هى الحزب الإسلامى.

حتى الإخوة الرفاق يكتبون اليوم بلغة قال الله وقال الرسول..

مات حصان الاشتراكية القديم الذى كانت تجرى عليه معظم المراهنات فى الخمسينيات والستينيات، وظهر فرس رهان جديد.. وتيار جديد قوى وعارم.

وركب التيار كل المراهنين.. وفيهم الصادق والمنافق، والمناور والتاجر، والبر والفاجر.. وأهل الإحسان وأهل الإجرام.

حتى خطف الطائرات ادعى الخاطفون أنهم جاءوا يحملون أكفانهم للخطف والقتل فى سبيل الله وفى سبيل الإسلام.

وهى ظواهر تدل فى مجموعها على شىء.

إن الإسلام هو حقيقة الساعة التى لا يمكن تجنبها.

هو الذهب الذى لا خلاف على قيمته، وإن اختلفت ذرائع الحصول عليه، واختلفت دواعى استعماله، فالكل متسابق

للحصول عليه، بالسرقة أو بالخطف، بالحق أو بالباطل، ليستعملوه بعد ذلك فى الإصلاح أو فى الإفساد.

ولكن لابد أولا من الحصول عليه لعمل أى شىء.

فهو القوة التى لا بديل عنها.

والنتيجة.. أن الإسلام نزل إلى الساحة بالفعل ليغير التاريخ وليغير النفوس، وليبدل خريطة المنطقة.. يشهد بذلك الأنصار والخصوم.. ويشهد بذلك تآمرهم لسرقة شعاراته، وتحايلهم لاستعمال رموزه وتسابقهم للتلفع بعباءته.

ولا أرى المشهد الذى يجرى الآن على مسرح العالم إلا مقدمة لمعارك سوف تشمل ما بقى من التاريخ إلى قيام الساعة، يخوضها الإسلام وأهله.

وما أحسب هذا الظهور الثانى للإسلام بهذا العنف إلا أن يكون القوة التى حشدها الله ليواجه بها الظهور الثانى لدولة إسرائيل.. هذا الظهور المُؤَيَّد بالناب الأمريكية، وبالمخالب الذرية، وبالإفساد العالمى العريض فى جميع محافل السياسة والصحافة والإعلام.

ولمثل هذا الإفساد الهائل المدجج بالقوى السياسية والعسكرية.. كان لابد أن يحشد الله الإسلام ويقذف به فى هذه الصورة التى تبدو لنا فى ظاهرها وفى بدايتها شديدة التناقض..

بل تبدو وكأنها مختلطة يمتزج فيها الزائف بالصحيح.

ولعل المرحلة القادمة هى امتحان النفوس واختبار المعادن على مفرزة التاريخ الدموية، لفرز زائف الإسلام من صحيحه.

ومن قبل هذا ومن أجل هذا رأينا الله يغمر هذه المنطقة الفقيرة من العالم بالمال والكنوز والبترول، ثم يغمر مصر بطوفان من النسل، ثم يسقط أراجوزات الاشتراكية واحدًا بعد الآخر من المنطقة، ثم يطوى بالفكر الماركسى كله فى غيابات الفشل والنسيان.

ويقف شباب العالم فى ضياع وكأنهم على باب مفترق طرق. تعبر أغانيهم وموسيقاهم وفنونهم عن هذا الضياع والفراغ النفسى، والإفلاس الأيديولوچى، والبلبلة الأدبية.

وكأنما هناك محراث خفى يحرث الأرض ويمهدها ويعدها لشىء..

وماذا يكون هذا الشىء إلا المعركة.. والمواجهة الثانية التى تَحَدَّثَ عنها الله فى القرآن فى آيات وعد إسرائيل.

وهى معركة تبدأ فى ظنى حضارية بسقوط باقى الأراجوزات (الخومينى والأسد والقذافى) ثم التئام الجبهة العربية بعد طول تمزق.

وربما كان هذا هو الجزء القريب من القصة الذى ربما عاصرناه ورأيناه.

ولا تخشى إسرائيل شيئًا خشيتها لهذا اليوم الذى تلتئم فيه الجبهة العربية.. ولهذا سوف تحاول أن تفتعل حربًا، وتختلق صدامًا عسكريًّا تعاجل فيه العرب وهم ما زالوا على تمزقهم.. وقبل أن يجتمعوا على كلمة.

وربما كان هذا هو تاريخ الأيام أو الشهور أو السنة القادمة على الأكثر.. ولكن العرب لن يستدرجوا إلى الفخ.. وسوف يفوتون عليها الفرصة.. ولن يتم لها ما تريد.. بل سوف يحدث العكس.. أن تنكشف وتفتضح، وتظهر نياتها أمام العالم أكثر وأكثر، وسوف يعرف الكل أنها أصبحت الذئب ولم تعد الحمل..

وأنها أصبحت تجسد نفس العدوان الذى كانت تنكره.. العدوان النازى.. والعنصرية النازية والوحشية النازية التى اكتوت بها واصطلت بنارها.. عادت لتجرعها للعرب بتأييد أمريكى، ومساندة أمريكية.

ولن تستطيع المظلة الأمريكية أن تستمر فى مساندة هذا العدوان السافر الذى يشجبه العالم.

وسوف يتغير اتجاه الرياح، وتتغير الموازين، وتتراجع أمريكا شيئًا ما عن تحيزها.

سوف يحدث هذا فى الوقت الذى تلتئم فيه الجبهة العربية، وتجتمع كلمتها، وتتبدل زعاماتها.. وربما لن نعيش لنرى هذا الفصل الثانى من الملحمة.. فهناك وجوه جديدة، وأسماء جديدة، وقيادات جديدة، هى فى طى الكتمان الآن، يربيها الله ويصنعها على عينه لتكون طلائع النور لعصور قادمة.. وهو يخفيها الآن ليجليها لوقتها.

وربما يرى أولادنا أو أحفادنا الفصل الختامى من الملحمة، ويشهدون هذه القيادات، ويرون هذه النجوم الطالعة من بطن الظلمة.

وربما يكون أحفادنا هم هذا الجيش الذى يسقط البطش الإسرائيلى عن مقعده، ويطرحه عن جواده الخشبى الذى اصطنعه لنفسه من نسيج ضعفنا وتمزقنا..

إن السنين القادمة يا إخوة هى ملحمة الإسلام فى ظهوره الثانى.. وما نرى الآن من أحداث هى بشائر ولوائح وعلامات.

إن ما أعطى الله من قبول لداعية مثل الشيخ الشعراوى ليس مصادفة، وما نرى من صفوف متراصة من مستمعين، صغارٍ وكبارٍ شيبٍ وشبان، تتحلق أبصارهم وأسماعهم حول الرجل وهو يلقى عليهم دقائق فى علم النحو والصرف فيتابعونه فى لهفة وشوق، وكأنه يلقى عليهم أغنية.

إن الرجل لا يستطيع وحده أن يفعل هذا.. ولكنه الفتح والقبول وشرح الصدور، وما يفعله الله مما لا نعلم ومما لا يعلم أحد، حتى الشيخ نفسه.

وساحات الخلاء التى تمتلىء فى فجر الأعياد بمئات الألوف يفترشون الأرض يجلجل الفضاء من حولهم بتهليل «الله أكبر» يسوقهم الله من بيوتهم، ويوقظهم من لذيذ منامهم.

وجبل عرفات الذى يغص بالملايين يتضاعفون سنة بعد سنة، يأتون من أقطار الأرض من كل الأجناس واللغات، يحدوهم الحادى.. لبيك اللهم لبيك..

ذلك فعل إلٰهى.. وليس فعلاً بشريًّا.

لماذا لم يستطع أحد فقهاء الماركسية أن يجلس على دكة ويجمع حوله ما يجمع الشيخ من جمهور؟

إن الفقه الماركسى بما فيه من تحريض طبقى ساذج للفقراء والمحرومين أسهل بكثير، وأكثر جاذبية من دقائق علم النحو والصرف التى يلقيها الشيخ على مستمعيه.. فلماذا لم يظهر شعراوى ماركسى يجمع الناس؟

لأنه لا قبول.. ولا حب لهذا الكلام ولا لأصحابه.

لقد صرف الله الناس عن هذا الكلام وانتهى عصر.. وبدأ عصر جديد لله فيه مراد جديد وشأن جديد.

ولن يمتحن حامل أمانة بمثل ما سوف يمتحن به هؤلاء الحملة لأمانة «لا إلٰه إلا الله» الخائضين بها فى أوحال زمن ردىء، وسط عدوان، ومكر، وفتن، ودول عاتية مسلحة حتى الأسنان، ودهاليز سياسية ملتوية يتوه فيها اللبيب.

وما حمل مسلمو قريش بالأمس البعيد ما يحمل مسلمو اليوم من تركة مثقلة بالرعب والغموض.

كان مسلمو الأمس أحسن حظًّا، فقد كانوا يبارزون أعداءهم رجلًا لرجل، وكانت هناك بقية من تقاليد الشجاعة والفروسية والشهامة.. أما اليوم فالنذالة هى القاعدة.. والعدو لا يظهر فى العراء، وإنما يرسل بالعبوات الناسفة فى البريد.. ويطلق الصواريخ من غرف آمنة حصينة، ولا يختار أهدافًا عسكرية، بل يختار شعوبًا آمنة، ويقتل نساءً وأطفالاً وشيوخًا يسعون فى الأسواق، ويفجر قنابل ميكروبية وغازات سامة من طائرة بلا طيار، ومن ورائه ترسانات من السلاح لا تنفد، ودول كبرى تملك المليارات.

مسلم اليوم المخلص بمائة مسلم من أيام خالد بن الوليد وعقبة بن نافع، وهو يتعامل مع عداوات ألَدّ، وفتن أشد، وأسلحة أفتك، وهو لا يجد معه أحدًا، حتى حكومته يفاجأ بها ضده، وهو يخوض بحرًا من التعمية والأضاليل والغموض، ولا يرى مواقع قدميه.

وما بالك بمجاهد أفغانى ظل يحارب الترسانة الروسية فى السنوات الثلاث الأولى من الحرب ببنادق عتيقة، ومن ورائه حكومته ضده، وعياله فى خيام إيواء لا يجدون اللقمة، والسماء من فوقه تمطره بالقنابل والغازات السامة، ومن حوله عالم لا يتحرك، وصحافة لا تتكلم، وهو لا يملك شيئًا سوى القتال والصبر حتى الموت. وقد صبر وصابر وانتصر على قُوى لا تغلب.

إن إسلام اليوم ينبثق من ظروف طاحنة، ويولد من تناقضات مهلكة، ولكنه سيكون أعمق وأكثر ثراء من إسلام الأمس، لأنه سيحتوى على تطور ألف عام من المجتمعات والمعارف والعلوم والفنون بين دفتيه.

إنه خطوة إلى الأمام عبر نقلة هائلة من البداوة الأولى فى قريش إلى حضارة الكومبيوتر والليزر والأقمار الصناعية.

ومثل هذه النقلة تحتاج إلى زعامات مرنة، وعقول متطورة، ومعارف موسوعية، لتقدم إلى العالم إسلامًا مستوعبًا، يضم كل الأجناس فى عباءته.

إن العقول المتحجرة الموجودة التى مازالت تدور فى فقه الحيض والنفاس وشروط الاستنجاء لا تعبر عن جوهر الإسلام ولا عن سعته، ولا عن عالميته، وإنما هى حبيسة دهاليز فقهية عتيقة، أدخلت الإسلام فى حارة سد، وقضت على حيويته ومرونته.

وعلى من يريد أن يخرج بالإسلام إلى العالم أن يخرج من هذه الدهاليز ويتحرر من هذه الزنزانة، ويحطم هذه القيود، ويجلو الصدأ الذى ران على العقول، ليتألق من جديد صفاء التوحيد، وجلال وعمق كلمة «لا إلٰه إلا الله».

وقد أظلنا هذا الزمان الموعود.

وما نرى حولنا الآن من صهير المحن وحصار الفتن وتعاقب الأزمات وتكالب الأعداء ما أخاله إلا مقدمات ومبشرات بميلاد العقول الجديدة الخلاقة التى قدر لها أن تتعامل مع المعادلة الجديدة المعقدة التى نعيشها.

إن مشاكل اليوم أشبه بالأقفال الرقمية والخزائن الإلكترونية التى لا تفتحها إلا تعاويذ العلم ودوائر الريموتكونترول..

وهذه الأشياء هى بعض ما يحتاج إليه مسلم اليوم، بالإضافة إلى إيمانه وشجاعته.

وفى القديم لم يستطع أحمس أن يهزم الهكسوس بشجاعته وحدها.. وإنما بالعربة الحربية والتجهيز الحديث.

وقد فعلها مجاهدو أفغانستان بصواريخ ستنجر.

وهذه أشياء اسمها العلم.

واسمها فى الإسلام الأسباب.

والأسباب هى يد الله فى الأرض.

والله لا يحب أن نرد يده الممدودة بالأسباب ثم نسأله المعجزات.

فعلينا أولا أن نستنفد كل الأسباب المتاحة، ونستفرغ كل الوسع الممكن قبل أن نسأله سؤال المضطرين.

هذا درس قديم جدًّا.. جاء به القرآن من ألف وأربعمائة عام.. وقد نسيناه تمامًا فى نكسة الجمود، وفى ضوضاء المشاجرات على الحجاب والنقاب واللحية وتقصير الثوب.

وجاء الوقت الذى نعى فيه الدرس ونذكره جيدًا لتتحقق النبوءة، وينفتح الباب السحرى، ويبدأ التحول الكبير.

ثم إن الإسلام احتضن المسيحية فى عباءته، فتزوج نبينا مريم القبطية، وآوى النجاشى المسلمين الفارين الأوائل، وصلى عمرو ابن العاص فى كنيسة بيت المقدس، ونزل فى عيسى قرآن يُتلى يقول إنه كلمة الله وروح من الله، بل قال أكثر من هذا، إنه ينزل آخر الزمان ليكون من علامات الساعة.

وليس مسلمًا من يثير فتنة طائفية أو يضطهد ذميًّا كتابيًّا.. ولن ينجح إلا مسلمو المودة والمحبة والوحدة ولن يفوز إلا علماء بالدين وبالعصر.

وهؤلاء هم المسلمون الموعودون بالنبوءة.

الفهرس

صفحة

مقدمة ٣

كلمة التاريخ ٧

كيف يحكم الكبار هذا العالم ١٤

الدخول من سلم الخدم ٢٢

إلى الوراء سر ٣٤

عام الهستيريا ٤٥

سقوط اليسار ٦٠

الحب المبرر الجاهز لكل شيء ٧١

الذين يزرعون الخوف ٨٠

هل اقترب الطوفان؟ ٩١

النبوءة ١٠٣

رقم الإيداع	١٩٨٩ / ١٧٥٢	
الترقيم الدولى	٢-٢٦١٢-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٨ / ١٤٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

الدنيا تغيرت..

ولم تعد المشكلة هى يمين أو يسار.. وإنما المشكلة هى هل تعمل أو لا تعمل.. وما حظك من العلم.. وما حظك من التكنولوچيا.. وما حظك من الإنتاج.

والاقتصاد الحر والمناخ الديمقراطى هما المدخل إلى القرن الواحد والعشرين.. أما دول القمع البوليسى، والاقتصاد الشمولى، ومجتمعات الطبل والزمر والشعارات فمكانها فى مؤخرة الركب.. ومصيرها أن تظل تتصارع وتقتتل فى داخلها حتى تفنى غير مأسوف عليها.

فماذا يريد الرفاق الجدد؟!

إن العمال فى بولندة رفضوا الشيوعية.

والفلاحين فى الصين ضاقوا بالعمل فى الكوميونات الكبيرة.

والطلبة فى شنغهاى ساروا بالألوف فى مظاهرات ينادون بالديمقراطية. أول مظاهرة فى معسكر شيوعى نقلتها البرقيات فى شتى أنحاء العالم.

انتهى عصر النظريات والمذاهب..

لم تعد النظريات هى التى تحكم، وإنما التجربة والواقع والظروف هى التى تملى وتشير، ثم تأتى النظرية فى النهاية فتخرج من الالتحام العملى بالمشاكل.

لم يعد الحاكم يأخذ التعليمات من ماركس أو لينين وإنما يأخذ توجهاته من مصلحة مواطنيه.

ص
٢٥٠